رواية

وارد بدر السالم

جمهورية مريم

Arab_Books

المتوسط

من الرواية:

... «غير أن الأستاذ خرج ذات يوم من البرّ، ومن مستودع الجثث المجهولة، وأعني من هذا المكان، ونادى الناس أن يتركوا العاصمة المريضة والمُدُن المنهوبة والخربة والموبوءة بالحروب الداخلية، ويبنوا حياً أخضر، على أنقاض الجثث المتروكة في العراء، فهُرع إليه الفقراء من الأديان والطوائف والمذاهب كلها، وآزروه، ونصروه، وتخلّصوا من أعباء الميليشيات والحكومات الهزيلة التي حكمها حزبٌ واحد، لا يعرف من السياسة غير التزوير والفساد واللصوصية، وتُغذّيه أذرع خارجية قريبة منه، وتُملي عليه ما تريد» ...

جمهورية مريم

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Jomhuriat Mariam *by* "Warid B. Alsalim"
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: وارد بدر السالم / عنوان الكتاب: جمهورية مريم
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-20-8

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

وارد بدر السالم

جمهورية مريم

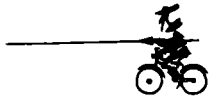

المتوسط

Telegram: @Arab_Books

قلتُ له: قل لي ماذا أقول للناس عنكَ وعن زمنكَ؟

قال: لا تذكر اسمي بينهم. خذ منّي ما يناسبهم، ومن أقوالي حجّة لهم، وقل هذا من إلهام الله، أيّها الناس؟

- ولكنْ، هل أنت تتكلّم من الله، أيّها النائب بوذا؟

- لا، أيّها الأستاذ النبيل. الله أخرجَني من قصر منيف، وتركني في برّيّة مظلمة .. أودعَ في قلبي نوراً، فخذ منّي ما تشاء، وفَصِّلْه على مقاماتكم. لكنْ، خذ من قِبَلي ما تجده صالحاً، لينموَ بينكم، كما ينمو العشب على أهداب نسائكم الجميلات، ومن بعدي، خذ ما تراه موثوقاً من حِكَم الأنبياء والمرسلين، من أولئك الذين مشى النور في عروقهم، كي يمشي النور النبوي في عروقكم.

قلتُ له: أيّها المستنير، أنِرْ طريقي، بحكمة أخيرة.

ضحك المستنير الحيّ، وقال: خذْ وردة من كل حديقة، وازرعْها في سندانة، تَسَعها كلها، واسْقِها جمعاً لا فرادى من ماء دجلتكم، كي تتآلف عروقها، وتترقّق، ثمّ اسقِها بعد وقتٍ حسب فصولها وألوانها ومزاجها، ستجد أنكَ بستانيّ ماهر.

.. نمتُ ليلتها تحت وافرٍ من المطر نوماً مرتاحاً.

من روايتي "عجائب بغداد"، ص ١٧٨.

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

الصّدمة اليابانية

(١)

فريق تلفزيوني ياباني، من رجل وشابّ وامرأة، أعاد الذكرى القديمة، وبثّها حيّةً بطريقة تسجيلية، حافظتْ على واقعيّتها المأساوية، كما حصلتْ من دون تدخّلات إخراجية، أو إكسسوارات تصويرية وموسيقية. فأحدثَ صدمة في روح المرأة الخمسينية، وهي ترى بيقين قديم مريم الشّابّة معلّقة على طرفيَ النار والماء، ورجلاً جريحاً ينتشلها من بين الطرفَيْن، بروح حُبّ عظيمة، ويسحبها إلى عمق النهر، ويعوم بها ليلاً بارداً كاملاً في نهر كان وما يزال يجري جارفاً معه ذكريات كثيرة وطويلة ومؤلمة.

كانت تقول في سرّها: هذه أنا .. وكانت ترى في الرقائق الفيلمية الشفّافة لحظةً عنيفة ومسعورة، انفرشتْ فيها النار على مدار القرية، وأكلتْها، وكادتْ تلتهم النهر أيضاً، لولا أن النهر كان يجري، ويبتعد بها، ويهرب من النار العملاقة التي أحرقتْ كل شيء، بزفير ما تزال تسمعه، بالرغم من مرور ذلك الوقت الطويل كله، وهي معلّقة على صدره؛ يرفعها الموج، ويرفعها ذراعه، ويرفعها صدره تحت رعب، لا يمكن أن تنساه في ذلك اليوم الأسود.

أجهشتْ قليلاً، كما لو عاد الخوف إليها في لحظة السكينة التي تعيشها، فضمّها الروائي بحُبّ، وهو يربت على ظهرها كطفلة:

Telegram: @Arab_Books

- لا تتألّمي. إنها صورٌ قديمة، انتصرنا عليها في نهاية الأمر.

ضمّها إليه أكثر:

- ولو أنه تاريخ شخصيّ، لكنه تاريخ بلاد، وعلينا أن لا ننساه. علينا أن نحتفظ به.

نشجت أكثر، وهي تتشبّث به، كما لو تريد أن تمسح من رأسها آثار اللقطات التي عرضها الياباني .

(٢)

كانت تنظر إلى الرجل الياباني، وكأنه ساحر، استقدم ثلاثين سنة ماضية في شريط فيديوي رقيق كقشرة البصل، انبثقتْ منه حزمة ضوء مرقّشة بالغبار الناعم، والتصقتْ بشاشة صغيرة متنقّلة، وضعتْها يوكي على حيّز مناسب من جدار الصالة الأبيض، كما لو تفسّر الكثير من الصور وقصاصات الصُّحُف التي تملأ الجدران، وتُحاكيها، وتشرح ظروفها العسيرة الفظيعة، شاء الفريق الياباني أن يعرضه ويقدّمه بعد تلك العقود الماضية كلها في هذه الفرصة الثمينة التي قد لا تتكرّر، في بلاد حملتْ على عنقها عقود الظلام الطويلة، وهو ما شكّل لديها خوفاً قديماً، استحضرتْه فوراً، ورأت مريم الشّابّة تتنفّس وتختنق وتموت وتنجو في ليلة المَحْرقة التي لا مثيل لها، خرجتْ فيها من رحم القدر، بأعجوبة لن تتكرّر.

أجهشتْ، وهي ترى مريمها القديمة مختنقة وهلعة، تتمايل بين الموج اللزج، وقد أنجدها رجل جريح، كابد من أجلها كثيراً حتّى لا تغرق، فأيقنتْ من تلك اللحظة أنه لم يغرق من أجلها فقط، ومن أجلها، بقي يتنفّس

Telegram: @Arab_Books

على قيد الحياة، وعلى قيد الحيّ الأخضر حتّى الآن، بالرغم من جراحه التي صبغت المياه في ليلةٍ طويلة، ظلّتْ فيها طافية على مياه النهر متسلّقة الجسد الجريح في ساعات، تظلّلها أهوال النيران التي أكلت القرية، وهدّدت النهر أيضاً.

(٣)

كانت مصادفة سياحية وإعلامية بذاكرة رجل عجوز، تفتّحتْ في لحظة استرخاء، حينما زار العاصمة مع فريقه التلفزيوني المكوّن من مصوّرة شابّة، لا تفارقها كاميرا تلفزيونية صغيرة، بحجم علبة الدخان، يرافقهما صُحُفيّ متدرّب شابّ، يحمل هو أيضاً كاميرا بحجم الولاعة، يربطها بخيط جِلْدي على ساعد يده كالساعة.

طاف الفريق بزورق خشبيّ متهالك على نهر دجلة، يقوده رجل ستّينيّ، يدخّن بشراهة، بدا هزيلاً أكثر ممّا يجب، وكان العجوز الياباني يتشمّم مياه النهر بحاسّة شخصية، كَمَن يفتقد رائحةً ما، شمّها ذات يوم في خليط الروائح التي يحملها النهر؛ مستعيداً ذكرى ثلاثين سنة مضت، حينما كان في بغداد، يُرسل تقاريره الصُّحُفية إلى التلفزيون الياباني بقناته الرسمية في طوكيو، في أثناء القتال الطائفي عام ٢٠٠٦.

يوسّع عينَيْه مع الموج المتدفّق، ويوسّع ذاكرته الشائخة بمهارة، ليستدرج يوماً واحداً من تلك العقود المتعاقبة، تلك التي خزّنها مصوّرُهُ في لحظات عصيبة، كادت تفتك به، وفتحها أمامه بعد سنوات، لتكون بذرة روايته "نهر بغداد" التي كتبها بألم، وهو يستدعي النهر والزوارق والحريق والموت والرصاص والغربة في قرية الخلاص التي لم يُكتَب لها البقاء.

Telegram: @Arab_Books

(٤)

يرأس الفريق روائيّ وإعلاميّ معروف في طوكيو، اسمه هيروشي، من أنصار البيئة الخضراء، هو مَن أثار الحادثة التي نسيها الناس في خضمّ أحداث تالية، وتعاقبت الأجيالُ على نسيانها، بحوادث أكثر دموية ورعباً تلتْها، وهدأت النفوس نسبياً مضطرّة بعد أكثر من مناسبة انتخابية، تسيّد فيها حزب إسلامي رئاسة الوزراء بالغشّ والترهيب والمؤامرات أكثر من مرّة، وابتلع مؤسّسات الدولة في كل مرّة، ودائماً كان يترك وراءه ملفّات فساد وفضائح مالية وإدارية حتّى أدخل البلاد في بحر كبير من الفساد والميليشيات الدينية الطائشة والبطالة والجريمة وانتهاك حقوق الإنسان على أوسع نطاق، وبدت بغداد لهيروشي كأنها عجوز تسير على العديد من العكّازات، وليست بغداد التي رآها قبل ثلاثين سنة، أو تلك التي شغلتْ مخيّلته في لياليها العبّاسية القديمة.

(٥)

طاف به الزورق القديم على صفحة النهر، ومرّ من تحت جسر الجمهورية منحدراً جنوباً، فتطلّع إلى الضّفّة الأخرى المتآكلة بقلب خافق، وذاكرته تدور كالمغزل السريع.

انمحت الصورة القديمة كُلّيّاً، وضاع الحريق القديم. حتّى الأثر لم يبقَ إلا من شواخص معدودة، يعرفها إلى حدّ ما، فيكتنفه العبوس، ويضمّ شَفَتَيْه.

وهو يستعيد ثلاثين سنة، تقدّمت إلى ذاكرته العجوز في لحظة الزورق ولحظة بغداد التي يعود إليها لفَحْص الماضي، وجد تلالاً من التراب، وأكثر

Telegram: @Arab_Books

من لسان، يصل إلى منتصف النهر تقريباً، وسدوداً غير مكتملة، دخلت كألسنة رمادية، وتُركتْ على ما يبدو، فتوقّفتْ، وصنعت بما يشبه الجزر العشوائية، إضافة إلى أنّ الساحل تشوّه بهياكل بيوت مهجورة ومنشآت صناعية محلّيّة بسيطة مَبنية بطريقة بدائية، تنفث خراطيمُ سطوحِها دخاناً أسود في الغالب.

(٦)

تتوهّج ذاكرته الأربعينية السابقة في زمن الزورق والنهر وحريق قديم، فيغرق في لحظات الماضي الذي حبسه في رقائق وشرائح ناعمة، متأمّلاً الضّفّة النارية التي اشتعلت ذات يوم، وقبضتْ على قرية فقيرة وسعيدة، حينما حاولتْ أن تتخلّص من حربٍ محلّيّة، وأحالتْها إلى ركام، وقتلتْ فقراءها وعُزّلها بطريقة مجنونة.

يأتي الماضي بملامح نارية ملتهبة، لكنها ملامح عامّة، يترجرج كموج النهر، وفي رأسه ملامح بعض الناس الذين رآهم في الفيلم التوثيقي النادر، وربمّا رآهم في الواقعة الحمراء ذات يوم، حينما كان أصغر من هذا العمر بثلاثين سنة.

(٧)

لم يلفتْه بناء حديث سوى بعض العمارات الواطئة التي يُغلّفها الزجاج الأخضر والأزرق المُترَب خلف الشارع العامّ، فبدت كأنها علب كبيرة وسخة ومتروكة.

وجد النهر منحسراً كثيراً كخاصرة مريضة، وقد زحفتْ عليه أزبال العاصمة ونفايات الصرف الصّحّي والتلال الترابية المتعرّجة التي وصلتْ إلى منتصفه، وعَلَتْ عليه كرفانات ببناء كيفيّ من البلوك الرمادي، وقتلت النباتات التي كانت تمتدّ كشريط على ضفَّتَيْه، وحوّلتْها إلى مسطّحات ترابية، بما يشي بأنّ النهر يحتضر ويتنفّس بصعوبة.

(٨)

يستحثّ ذاكرته أكثر في لحظة النهر المنسابة مع رجل الزورق بفريقه الصغير ومترجمه الشابّ الحريص على توفير أيّة معلومات سريعة ممكنة له .

يتأمّل المكان، ويشمّ روائح نهرية مختلفة، اختلطتْ عليه، ويحثّ المصوّرة الشّابّة أن تُصوّر الضّفّة التي أمامه، بوضعها الذي فاجأه.

طَلَبَ من رجل الزورق الذي لم ينقطع عن التدخين أن ينحدر به أكثر جنوب النهر، وكانت عيناه تتطلّعان إلى الضّفّة القريبة، وتمرق البناياتُ القديمة من أمامه مستدعية له صوراً، كادت تغيب عن ذاكرته، لولا هذه الزيارة التي أعادتْه إلى النهر مرّة أخرى، وأعادت فيه نهاراً، لخّص مأساة الناس وحيرتهم، عندما وُضِعوا بين منشار الطوائف المتقاتلة ذات نهار فوضوي خارج عن قانون الحياة.

ولولا المصوّر الشجاع الذي رافقه في ذلك الوقت، وهو يوثّق جزءاً مهماً من تجربته في القرية الصفيحية العشوائية التي بناها الأستاذ الذي غاب أثره، على ما يبدو، بعد هذه السنوات كلها، لضاعت معالم ذلك اليوم، وما استطاع أن يكتب "نهر بغداد" بمراراتها المتدفّقة التي عادتْ إليه الآن.

Telegram: @Arab_Books

- يوكي .. صَوِّري هذه الضّفّة كلها.

أمر الفتاة المتهيّئة، وهي تتلقّى نسائم باردة، فشرعتْ بتصوير الضّفّة المتآكلة من دون أن ترى زاوية فنّيّة، تُسعفها بلقطة نهرية، تستفزّ براعتها التصويرية، وبشكل لا إرادي، أخذ هيروشي يتحسّس موضعاً في ساقه، أُصيب به ذات يوم، حينما حاصره حريق القرية التي بناها رجل خرج من العاصمة بوصايا وأفكار ومواقف جريئة، فتبعه فقراء البغداديين الذين هربوا من بطش الميليشيات المتناحرة، والتجؤوا إلى قرية من صفيح وخشب، مع ذلك القدّيس الذي كان شكله يشبه شكل غاندي إلى حدّ كبير.

هزّ الرجل رأسه، كما لو كان أحد يكلّمه من داخله، وهو ما جعل رجل الزورق أن ينتبه إليه، ويهزّ رأسه معه، حينما التقتْ عيونهم في لحظة سريعة، كأنما تكلّم الرجلان، في الوقت نفسه.

(٩)

ما يزال وخز الطلقة يعيد إليه كابوساً وحريقاً وحصاراً وموتاً تركه في لحظة عجائبية، حينما اختلط النهر بالدخان والرصاص والصراخ، لكنه الآن يعود إلى المكان ذاته؛ إلى دجلة الذي أغرق الكثيرين، وحمل بين أمواجه الكثيرين أيضاً إلى منافذ الخلاص في يوم عصيب، لا يمكن له أن ينساه.

سأل رجل الزورق الذي ينفث من منخرَيْه الدخان:

- هل كنتَ هنا ذلك اليوم ..؟

أعاد المترجم الشّابّ صيغة السؤال بطريقته:

Telegram: @Arab_Books

- يا عمّ، يسألكَ الرجل .. هل تتذكّر الحريق القديم الذي شبّ في هذه الضّفّة؟ .. هل كنتَ في يوم الحريق القديم موجوداً هنا ..؟

نظر رجل الزورق إليه من دون أن يتكلّم ويجيب.

(١٠)

تلتقط المصوّرة الضّفّة، وتضعها في كادر واسع، وتحصرها بأكملها.

يرى هيروشي من العدسة الصغيرة الخرائب القديمة المتروكة، وبقايا المكان الذي تكوّم على بعضه، وسواداً يصبغ نخلات محترقات، بقيتْ على احتراقها، وصفائح متراكمة، وما يشبه البيوت الصفيحية المطعوجة ارتمتْ على لسان النهر، وقد أكلها الصدأ والوقت، فأصبحتْ ملاذاً للكلاب والقطط والجرذان والمتسوّلين السُّكارى.

قال بصوت لم يفهمه رجل الزورق، وهو يتأفّف:

- النهر يمضي إلى المستقبل، ويتجدّد، مهما كانت الظروف، والناس تموت من دون أسباب في بلدكم العجيب!

Telegram: @Arab_Books

الحيّ الأخضر

(١)

لم تكن مريم مهيَّأة أمام الكاميرا الصغيرة التي فاجأتْها بعد عودتها من النهر القريب، لكنها ابتسمت للوجوه الثلاثة المتشابهة، وهي تتباطأ، وعيناها مُتّسعتان بسوادٍ جاذب.

كانت تنوء بحَمْلها من الملابس المغسولة في سطلَتَيْن رصاصيَّتَيْن، وهي تصعد المنحدر باتّجاه حبل الغسيل المعلّق بين شجرتيَ صفصاف، والكلب الأبيض الضخم يتقافز أمامها، في حين بدأ الفريق التلفزيوني يحاصرها بالكاميرا الرَّقْمية الصغيرة، وعيناها السوداوان تتفرّسان بالوجوه الغريبة التي انفتحتْ عن ابتسامات جماعية، وكانت تُدرك بأن الحيّ أخذ طابعه السياحي، بشكل من الأشكال، واليابانيون ليسوا آخر السيّاح أو المراسلين الذين وصلوا إلى هنا .

تركت السطلَتَيْن على الأرض، وزرّرتْ أزرار ثوبها، ابتداء من عنقها، وجسدها ينكمش في لسعة برد، بدأتْ من يَدَيْها العاريَتَيْن المبلَّلَتَيْن، وهي تبتسم للجميع.

(٢)

قال المترجم العراقي الشّابّ للتوضيح:

Telegram: @Arab_Books

- فريق إعلامي ياباني يزور المكان، ويتوخّى الاطّلاع على الحيّ الأخضر بعد أن شاهد الظروف الصعبة التي فيها العاصمة.

يتطلّع الروائي الياباني المخضرم إلى مريم بعينَيْه اللتَيْن غطّاهما شعر حاجبَيْه الأبيض النازل كثيراً عليهما، فيرى ببصيرة فيلمية شيئاً بذاكرة، لا يمكن أن تخذله في مرأى النهر والحريق القديم.

ماء ونار.

كان يقول لنفسه .. إنها ثلاثون سنة .. ما أقصر العمر مهما طال بين الماء والنار..!

تقدّم إليها، وصافحها بحرارة، وهو يديم النظر بعينَيْن، حافظتا على بريق سواد لامع فيهما:

- أنا هيروشي .. إعلامي متقاعد هههه، وروائي أيضاً، ومن أنصار البيئة الخضراء.

- أهلاً وسهلاً.

تطلّعتْ إلى الفريق الصغير، وابتسامة تعلو وجهها الجميل.

أحنت المصوّرة الشّابّة رأسها، ومثلها فعل الصُّحُفي المتدرّب.

قال الياباني بودّ:

- الدنيا صغيرة، سيّدتي.

بقيتْ تنظر إليه من دون أن تقول شيئاً سوى أنها ابتسمتْ، كأنما الرجل لا يفهم ما يقول، أو أن المترجم لم يكن حاذق الترجمة.

(٣)

كان يرى جمالاً قديماً، وأنوثة لا تخطئها العين، وقواماً قد رآه أو لم يره، وهو مأخوذ منذ أيام بجريان النهر الذي لم يتوقّف منذ ثلاثين سنة، حينما عاد هذه المرّة، ليرى الحياة البغدادية بعد الحروب التي كانت فيها منذ ذلك الوقت، وهي عودة، سعى من أجلها كثيراً، ليكون في هذا الجوّ الذي فارقه، متخلّصاً من موت أكيد في ذلك الوقت، فظلّت بذرة الرواية وجيناتها تحفر فيه الكثير منذ ذلك اليوم التعس، و"نهر بغداد" شهادة شخصية، لا يمكن أن تزول من رأسه، كان قد كتبها تحت وهج ذاكرة، وذكرى لا تزول.

تدخّل المترجم بشرح توضيحي، كأنه يحفظه:

- الفريق يريد استطلاع الحيّ الأخضر بعدما تأكّد أنه المكان الوحيد الذي أُنشئ بعد الحروب المتكرّرة في البلاد ؛ وبعد القضاء على دجلة بالدفن، وإنشاء الشاليهات والكازينوات والكرفانات والجزر الترابية التي خنقتْه.

لم تُركّز كثيراً بما قاله المترجم، فهو من معتاد الكلام مع المجاميع السياحية التي تصل الحيّ الأخضر بين فترة وأخرى، لكنها استدركتْ قول الياباني، كأنها وجدتْ لغزاً فيه، غير أنها صرفتْ مثل هذه الفكرة .. الدنيا صغيرة، يا أستاذ .. صحّ .. وهي تدعوهم إلى البيت المحاط بأشجار اليوكالبتوس الفارعة.

(٤)

همهم الياباني وهو يتطلّع إلى الفضاء الأخضر المنتشر المعقود في

Telegram: @Arab_Books

الحيّ السَّكَني المفتوح على فضاء واسع، ويتشمّم عبير أزهار، تتفتّح مع المطر، فتلبّسته روح المكان، وهو يتنهّد، كما لو استعادتْ ذاكرته شيئاً ماضياً، اكتنفه الحنين إليه.

- فرق كبير بين العاصمة الميّتة وهذا المكان الصغير الحيّ والمتحرّك!

تطلّع إلى أكثر من اتّجاه: أزقّة صغيرة متقابلة، تعلوها بلكونات من الأخشاب مُسوّاة بطريقة تراثية، تشبه الشناشيل، وتكسو بيوتها أشجار متطاولة، وتفترع تقاطعاتها نافورات صغيرة، تنفث أقواساً مائية دائمة، وثمّة ألوان كثيرة تنفتح على واجهات البيوت.

هواء أخضر نقيّ يزيد المطرُ من نقائه.

غمره شعور آخر وهو يتطلّع إلى عينَي السيّدة الخمسينية، شعور أشبه ما يكون بالفرح لكنْ، من دون سبب يعرفه.

(٥)

ثمّة صِبية قليلون يتناوبون في لعبة مطرية، ثمّ ينزوون تحت الشرفات بعد أن تتبلّل ثيابهم، ونساء يخرجنَ إلى السوق محاذيات الجدران، ورجال أقلّ يظهرون، وسيّارات قليلة تتخاطف على الشارع العامّ.

هناك مساحات مفتوحة متباعدة، وبَرّ مفتوح بارد، يلوح خلفها، لكنه اطمأنّ إلى ترتيب الحيّ الصغير، وهو يستنشق هواء الشتاء فيه، كما لو يرى حياة أخرى، لا ترتبط بالعاصمة الصاخبة.

حدائق عامّة واضحة في مسافات متقاربة بشكل دائري، تتّصل ببعضها

Telegram: @Arab_Books

بقناطر خشبية، وتجري من تحتها أنهار صغيرة، تبدو مثل السواقي النظيفة، وهي تستدير مع استدارات الحدائق الكروية.

(٦)

تشمّمهم الكلب، ورافقهم إلى الصالة، وقفزت دجاجات تركية منفوشة الريش بين أقدامهم، وحطّت عصافير مُصوّتة بإلحاح، وهي تتشاجر على ياسمينة، تدور على حديقة البيت مع ياسمينات واطئات، كَسُورٍ من الورد، يحجز البيت عن امتداد البيوت المزيّنة بالأشجار.

(٧)

قال الياباني كأنما ليستدرك القول الأوّل:

- الدنيا أصغر من أن نحيط بها، سيّدتي.

انتبهتْ مريم إليه، وهو يمضي في الكلام:

- قبل ثلاثة عقود، كنتُ في بغداد .. وها قد مرّ العمر، بلمح البصر.

(٨)

لم يكن هيروشي واثقاً كثيراً، وهو يخرج عن حزام العاصمة إلى بَرّ عارٍ من البنايات ومظاهر الحياة الصناعية. ومع أن أركان السفارة اليابانية طمأنوه

Telegram: @Arab_Books

بأن الطريق الذاهب إلى الحيّ الأخضر ممكن في مثل هذه الظروف ؛ إلا أنه ومنذ ثلاثين سنة حينما رأى بغداد ودجلة، وعاش حادثته الشهيرة، وخرج منها جريحاً، ظلّ يعتمل في داخله يأس مرير من أن تعود الحياة كما كانت، وتركّز مثل هذا الشعور فيه كلّما كان يقلّب بأرشيفه الفيلمي والصوري في طوكيو تلك المَشاهِد المريعة وحريق القرية واشتعال النهر وموت الحياة في أقسى كابوس عاشه مع الميليشيات الدينية المسلّحة ذات يوم في بغداد على نهر دجلة.

(٩)

ظلّت المرأة تنظر إليه، وهو يبتكر الكلام، كما لو يخرجه من روحه:

- الدنيا هاتف جوّال، يا سيّدتي. صغير وسريع العطب في الظروف الجوّيّة السّيّئة.

شمّ رائحة الحيّ، كأنه يطرد من أعماقه رائحة أخرى، زاحمتْه، وهو يطأ المكان الجديد بروح أخرى أكثر تقبّلاً لمكان عاشه يوماً ما بطريقة الحُبّ المجنونة لفتاته الهيروشيمية التي من أجلها استنطق قطّةً بيضاء، ودخل تنّور القرية المشتعل.

كانت مريم مضيئة العينَيْن، كما رآها سابقاً.

Telegram: @Arab_Books

مزرعة الجثث المجهولة

(١)

دخل الفريق إلى صالة واسعة، بحّرتْها خادمةٌ سمراء قبل قليل بنكهة التّفّاح.

صالة دافئة بمدفأة زيتية مركونة إلى جانب سفينة خشبية صغيرة، تتوسّط الصالة على منضدة صاج، ومن حولها إكسسوارات صَدَفية بَحْرية حقيقية، ولقى نهرية بسيطة، وكوز ماء صغير من الفخّار، وُضع كديكور.

· لفتتْها الشّابّة اليابانية التي تتشابه مع رفيقيها إلى حدّ ما.

· نفس السحنات والقِصَر والعيون المسحوبة.

· كانت ترتدي الجينز الصحراوي الضّيّق، والحذاء الرياضي الخفيف.

· شَعْرها شبابيّ، بموضة غريبة، لم تألفها شابّات الحيّ.

· فتائلها نافرة إلى الأعلى، تستدقّ بقاعدة صغيرة، تشبه كأس الوردة.

حيّتْهم مريم من جديد، بانحناءة من رأسها، وهي تدفع الكلب الأبيض من أمامها، غير أن المصوِّرة استلطفت الكلب الضخم، وأخذتْ تمُسِّد رأسه بإعجاب، وتُحدّثه بهمس، كما لو تعرفه.

Telegram: @Arab_Books

(٢)

قال رجل البيئة ويداه ترتعشان قليلاً:

- يخسر العالم بيئته النظيفة، بسبب المشاريع العمرانية الكبيرة، وفي بلدكم، يبدو استهلاك الوقود أعلى من معدّلاته .. ويبدو البناء العشوائي قد شوّه العاصمة إلى حدّ كبير.

نظر إلى عيني مريم وهو يكمل:

- العاصمة مختنقة بالسّيّارات القديمة .. زحام غير صحّيّ، يُلوّث البيئة، وينتهك شروطها.

أكمل وهو يتأفّف:

- أزبال غير معقولة منتشرة في كل مكان.

ثمّ تساءل بحماسة:

- هذه بغداد العظيمة التي نقرأ عن تاريخها المجيد وتراثها العلمي والثقافي!! .. لماذا أصبحت هكذا؟!

(٣)

بقيتْ مريم تنظر إلى الرجل وهو يتحدّث بطريقة مَن رأى بغداد سابقاً، وفُوجئ بخرابها الجديد، مثلما وجدتْ في ملامحه أسىً حقيقياً، وهو يتأمّل عباراته التي يقولها بروح صافية وحريصة.

تدخّل المترجم الشّابّ حينما وجد فرصة للكلام:

Telegram: @Arab_Books

- سنُقيم جولة في هذا الحيّ الريفيّ، سيّدتي، لمشاهدته وتصويره.

هزّتْ مريم رأسها:

- الفريق يريد أن يرى كيف نشأ هذا الحيّ الصغير وسط خرائب بغداد، وهي تخرج من حروبها المتلاحقة.

استعادتْ مريم شيئاً من الجوّ العامّ الذي وجدتْ نفسها فيه، وقالتْ للفريق:

- نفهم أن البيئة قضية العصر .. المشاريع الخضراء هي البديل الذي ثبت أنه ناجح لمواجهة التّصحّر من جهة، ومواجهة خراب البيئة، لهذا تجد مشروعنا انفتح بين الأرض والسماء على أطراف العاصمة المدمّرة، وفي مساحة برّيّة، كانت مزرعة للجثث المجهولة..!

سكتت المرأة، وهيروشي يضع يداً على خدّه متأمّلاً عينَيْها السوادوَيْن المضيئَتَيْن:

- بلدكم خرّبتْه الحروب الخارجية والداخلية. ساستُكُم هواة، لا خبرة لهم، كما نسمع ونقرأ على مدار السنوات الثلاثين، لاسيما المتأسلمون منهم، وأجيالكم الماضية عاشتْ مرارات كبيرة، تسبّبتْ في هجرة العقول الفنّيّة والعلمية والثقافية.

- قصّتنا طويلة، يا سيّدي .

واصل الرجل:

- في يوم ما، كنتُ في بغداد.

توقّف قليلاً ناظراً إلى عينَي المرأة باهتمام:

Telegram: @Arab_Books

- ربمّا كنّا معاً أنا وأنتِ في مكانٍ واحد، و...حريقٍ واحد.

انفتحتْ عيناها السوداوان، وهي تُنصت للعجوز الذي انسدل شعر حاجبَيْه الأبيض كثيراً، وهو يديم النظر إلى وجهها.

(٤)

دخلت السمراء بأناقة لافتة، تدفع عربة، عليها مختلف العصائر والمعجّنات وإبريق قهوة مذهّب.

همستْ بإذن سيّدتها شيئاً، فنهضتْ مريم خارج الصالة، يتبعها الكلب.

وزّعت القهوة المرّة، وهي تتلقّى كلمات الشكر المتعاقبة من الضيوف الثلاثة.

كانت بشرتها السمراء وأناقتها اللافتة موضع إعجاب الفريق الذين تحادثوا بكلمات، بدا أنها كلمات إعجاب بفتاة الخدمة.

غاندي

(١)

استرخى الفريق على أرائك، فيها شيء من البساطة الكلاسيكية، في حين تطلّع الجميع إلى معرض من الصور واللوحات وقصاصات الصُّحُف القديمة المعبّأة بالزجاج التي تُزيّن جدران الصالة، وتزدحم عليها.

صور كثيرة متراصفة بعناية، تُشكِّل سطوراً متوازية على مساحات الجدران، وقصاصات حالَ لونها تشكّلتْ في أطرٍ زجاجية، ظلّتْ تعكس الضوء الثلجي لمصابيح الاستقبال.

(٢)

نهر وفضاء ومدينة ودخان وبيوت خربة وجسر وأشلاء بنايات ونبات محترق وزوارق وصيّادون ووجوه محترقة أو فزِعة أو صارخة في ذكريات الصور المسطّرة؛ ولوحات رسمها هواة ومحترفون بعد نكبات كما يبدو مرّتْ على المدينة، استُنسختْ بوضوح، لتكون رديفاً للصور المعلّقة، وتحاكي ألمها وماضيها في يوم الحريق والغرق الجماعي.

(٣)

وجوه مرصوفة لرجال وشباب ونساء وأطفال يتناوبون في الظهور في

Telegram: @Arab_Books

صورة، اتَّخذ إطارها حجماً أكبر نسبياً من الصور كلها التي تسندها من الجانبَيْن، لرجل نحيف، يشبه غاندي ببدلته التي لم تتغيّر في الصور المثبّتة كلها على الحائط.

(٤)

وجهه صغير ومثلّث، وشعره أبيض مُثلج، وتحيط به جموع من جماهير، من الاتّجاهات كلها.

(٥)

لا يبدو في الصورة زعيماً أو نبياً جديداً أو مصلحاً اجتماعياً، لكنْ، للرجل أتباعه، كما هو واضح في أكثر من صورة، وهو ما استوقف الياباني العجوز الذي أخذ يديم النظر إليه بشغف كأنما يعرفه، وقرأ عنه.

تمتم بعض الكلمات لنفسه، وهو يطيل النظر إلى وجه غاندي النحيف.

(٦)

يتذكّره على نحو ما، وهو يحاول أن يستعيد شيئاً من تلك المرارة التي كان فيها ذات يوم غريب، حينما كان هذا الـ غاندي الطويل والنحيف يُخرج الناس من الحرب على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، في قرية من الصفيح والتنك، حرص أن تكون على ضفّة دجلة، بعيداً عن الرصاص وصولات

Telegram: @Arab_Books

الدم التي تمارسها الميليشيات الدينية، ويُنشئ قرية عشوائية للجميع على ضفّة النهر، ويطلب من الناس أن يرفعوا عليها راياتٍ بيضاء.

كانت محاولة منه لإنقاذ الفصيلة الإنسانية في بغداد قبل أن تندثر.

كان الياباني يُهمهم متأمّلاً أقصى الماضي، ومخترقاً تواريخ الصور كلها.

(٧)

ثمّة رائحة تتسرّب من الحديقة إلى داخل الصالة، وأصوات لطيور وأبقار وخيول ومياه وحياة طريّة منتشرة تتدفّق على نحوٍ متمهّل إلى الصالة.

قال المترجم للفريق:

- الناس هنا استوعبتْ دروسَ الماضي المؤلم، واتّجهتْ لاستدراك ما فاتها، لهذا ترون العاصمة، فيها بناء عمودي وأفقي عشوائي تقريباً، تسبّب به تدفُّق رؤوس الأموال من الخارج للاستثمار، من دون مراعاة لشروط البيئة، وبطريقة فيها شكوك فساد كثيرة وكبيرة، كما سمعتُم.

تساءل الصُّحُفي المتدرّب:

- ولكن هذا المكان النظيف يختلف كُلّيّاً عن المركز، كيف حدث هذا؟!

ردّ المترجم:

- في العادة، أقود الكثير من المجاميع السياحية إلى هنا، ولديّ تصوُّر ما عن هذا المكان بعد أن كان مزبلة، تُرمى فيها نفايات العاصمة كلها .. بل كانت تُلقى فيه الجثث المجهولة في الحروب الطائفية المحلّيّة.

Telegram: @Arab_Books

أكمل بطريقة مباشرة :

- أتعرف ماذا يعني أنه كان مستودعاً للجثث مجهولة الهوية، وكلها جثث عراقية؟! لكنْ، أترك ذلك للسّيّد الروائي حينما سيأتي بعد قليل، فقد يُحدّثكم عنه.

ثمّ أضاف:

- الناس هنا مذاهب وأديان وطوائف، لكنهم منسجمون بعد حادثة شهيرة، يتحدّث الناس بها منذ ثلاثة عقود .. لم أكن واعياً لها، بسبب أني لم أُولَد في ذلك الوقت.

(٨)

انتبه الياباني إلى أن مواطنته الشّابّة تُديم النظر إلى حشود في صور أخرى خلفه.

وبسبب ثقله الغاطس في الأريكة الإسفنجية، لم يستطع الالتفات.

- يوكي .. ما الذي يشغلكِ، عزيزتي ..؟

- صور كثيرة لبيوت، وناس تحتشد، وسوق مكتظّ، ونهر وحرائق تبدو وكأنها متحف حيّ، سيّدي.

- صوّري كل شيء .. أظنّ نبدأ التقرير من هذا المتحف الصوري.

فرك صدغَيْه متأمّلاً أن تعود السّيّدة الخمسينية بوجهها الباسم وعينَيْها السوداوَيْن المضيئَتَيْن.

الروائي

(١)

دخل الكلب يهزّ ذيله، وأطلّ وراءه رجلٌ يرتدي بنطلوناً أزرق، وبلوزة رصاصية، ويضع على كتفَيْه عباءة جوخ ثقيلة.

تسنده مريم من الخلف، وهي ترتدي بنطالاً غامقاً وسترة كحلية.

- زوجي.

هكذا قدّمتْه باختصار.

(٢)

صافح الرجل فريق العمل، ومريم تخلي يدها عنه .

بدا نحيلاً، وكانت رجلاه موضع ضعفه، لكنه تماسك أمام ضيوفه.

يميل إلى النحول أكثر منه إلى المرض.

بدا أنه يمتلك وسامة، لكنها غير واضحة لعيون الفريق، لاسيما للفتاة التي شدّت على يده، وهي تشعر بالارتباك أمام رجل طويل، بقامة لا يمكن

Telegram: @Arab_Books

التغاضي عنها، في حين كان المترجم الشّابّ يقفز إلى الرجل، ويصافحه بامتنان، كما لو يعرفه سابقاً.

- أهلاً وسهلاً .. سعيد بكم.

(٣)

نظر إلى العيون المسحوبة والوجوه المتشابهة، وجلس محاطاً بمريم التي توضّحتْ معالم جمال فيها غير خافية على اليابانيّ ذي الحاجبَيْن الأبيضَيْن.

قال المترجم ووجهه يبتسم:

- أقدّم لكم روائي البلاد الأوّل، وهو من أوائل الذين بنوا هذا الحيّ الأخضر بعدما مرّت البلاد بحروب كثيرة واغتيالات وهجرات داخلية وخارجية، لا حصر لها، مثلما حلّ بها خراب تعرفونه، وانقسمت جغرافيّتها إلى حصص وكانتونات مذهبية وقومية وعِرْقية.

انحنى الثلاثة باحترام وإعجاب، فواصل المترجم بحماسة:

- أستاذنا الروائي أستاذ الأجيال التي عانت من الحروب كثيراً. وهو رجل غير سياسيّ، ولم يقدّم نفسه بهذه الطريقة، لكنّ مشروعه الروائي كان في صميم تفكيك السياسة العراقية التي خذلت الناس، وأوهمتْهم بالديموقراطية طيلة أكثر من ثلاثة عقود، وكان يقول هذا بطريقة فنّيّة، لا شعارات فيها، كما أفهم.

(٤)

قدّم المترجم فريق العمل الذي يساند البيئة النظيفة، بوصفها قضية كل عصر، وترجم قول الياباني العجوز ذي الرموش البيضاء الطويلة الذي بدا منسجماً مع روحه السبعينية:

- سعداء أن نكون في هذا الحيّ الريفي الجميل الذي قرأنا عنه كثيراً، وسعادتي الشخصية أن ألتقي روائياً كبيراً مثلكم، حارب الإرهاب والفساد بطريقته، وأنتج مثل هذا الحيّ البيئي النظيف.

هزّ الرجل رأسه، وابتسامة ضعيفة تخرج من وجهه، فيما واصل الياباني العجوز:

- إن ما يهمّ الفريق هو ملاحقة كل مكان حدثت فيه حروب ونزاعات مسلّحة، ومحاولة إنقاذه من التّلوّث والقمامة ومخلّفات الحروب الكيمياوية والنووية، والتشجيع على المساحات الخضراء النقية .. وهذه مهمّة استوجبتْ علينا أن نزور بلداناً كثيراً في منطقتكم التي شهدتْ حروباً محلّيّة وخارجية، لنحيّي البيئيّيْن الخضر، ونشجّعهم على هذا الصنيع العظيم، ونُوثّقه عبر مركز عالميّ، يهتمّ بهذه الشؤون، ومركزه في طوكيو.

كان الروائي الآخر يصغي باهتمام، فواصل الياباني:

- هل تعلم، يا سيّدي، أن العالم يستهلك في الدقيقة الواحدة ملايين من أكياس البلاستك؟! .. ولكَ أن تتصوّر عندما تتحلّل هي وغيرها من الموادّ الصناعية ذات الاستهلاك اليومي ماذا تترك من موادّ سامّة في التربة والجوّ والبيئة البَحْرية على الكائنات الحَيّة في البرّ والبحر والجوّ.

هزّ الرجل رأسه، وهو يُنصت باحترام للشيخ الياباني:

Telegram: @Arab_Books

- البلدان التي خاضت حروباً طويلة فقدت بكارة البيئة النظيفة، واستبدلت بها الموادّ النائمة، وهي الموادّ السامّة التي تنمو ببطء، بمرور السنوات، على الرغم من أن هناك آثاراً فورية، ظهرت فيها بشكل أمراض عضوية، لكن الأخطر هو المادّة النائمة، كما تعلم.

(٥)

قال أيضاً:

- بلدكم تعرّض لحروب مختلفة، أخطرها الغزو الأميركي عام ٢٠٠٣، أي منذ ثلاثين سنة تقريباً، كنتُ وقتها مراسلاً للقناة الرسمية في طوكيو، وشهدتُ شيئاً من ذلك الغزو الذي أسقط رئيساً ديكتاتوراً سابقاً لكم .

فتح الرجل عينَيْه، وهو يتأمّل الشيخ:

- الآن أقود حملة عالمية لحماية البيئة في الدول التي خرّبتها الحروب، لنشر ثقافة البيئة الصديقة، وقد فاجأني هذا الحيّ وسط عاصمة، ما تزال خربة ومستهلكة ومريضة.

(٦)

دخلت الفتاة السمراء، وهي تدفع أمامها عربة صغيرة، استبدلت فيها بالمعجنات والعصائر فاكهة متنوّعة، ووزّعت بصحون صغيرة حبّات مختلفة منها بين الحاضرين، وسحبت العربة الأولى.

Telegram: @Arab_Books

(٧)

قال رئيس الفريق:

- لكي لا نطيل عليكم، سيّدي، نُحيّي فيكم هذه الروح التي تزرع الجمال وسط خرائب الحروب والسياسة، كما نحترم تاريخكم المبدع، ونعرف أنكم تنالون ثقة الشارع ببساطتكم، فأنتم حَمَلَة المأساة، لكنكم صُنّاع الجمال.

شكره بكلمات سريعة، وهو يشعر أنه أمام رجل، له قضية تهمّ الأجيال المحبَطَة التي ورثت النزاعات وخراب النفوس، فرحّب به من جديد، وقال وهو يشعر بتعب، كما اتّضح للفريق:

- أهلاً بكم في الحيّ الأخضر المتواضع الذي بناه البسطاء من الناس، حينما فرّوا من الحرب، وعادوا إلى قرويّتهم ونظافتهم وبراءتهم .. إنه تجربة ما بعد الحرب، وما بعد القتال الطائفيّ، وما بعد داعش وماعش وحروب الجيران الخفيّة وشبه الخفية والمُعلَنَة، وحروب الدول الإقليمية الطائفية، وظّفنا فيها إمكانيات ذاتية تحت سؤال: كيف نزرع الجمال بعد الحرب؟ وكيف نُنشئ بيئة أخرى وسط الخراب الذي لا يخفى عنكم؟ مثل هذه الأسئلة لن تستوعبها أو تُجيب عنها رواية، أو حتّى ملحمة، بقدر ما تستوعبه حاجة الناس إلى أن يكونوا في مكان، لا تُطلَق فيه رصاصة، ولا تُسرَق فيه وردة، ولا تُختطَف فيه طفلة، ولا يموت فيه جائع، ولا تحدث فيه مشكلة من هذا النوع. لهذا ستجد أن بيوت الحيّ الصغيرة والبسيطة تضامنت بعدما فقدت الكثير من أبنائها وممتلكاتها وبيوتها تحت سيادة ميليشيات دينية، استهترت كثيراً، وأفرغت الحياة من جمالها سنيناً طويلة.

Telegram: @Arab_Books

(٨)

صمت قليلاً وهو يشعر بالتعب، لكنه أكمل:

- في الحيّ، مسلمون ومسيحيون وصابئة مندائيون وأيزيديون وبهائيون وكُرد وتركمان وشبك وسُنّة وشيعة ومُلحدون أيضاً، يئسوا من فكرة الأديان التي قتلتْ بهاءَ الحياة، وصحّرتْها .. إنهم من الوطن كله، هاجروا إلى هنا، والتجؤوا إلى حيّنا، وبنوه، ورمّموا المكان الذي كان فيما مضى مستودعاً للجثث المجهولة.

شعر أنه يلزمه توضيح:

- في الحرب الطائفية القديمة، جمعنا أستاذ أكاديميّ، تعرّض للاختطاف، وأُطلق سراحه بفدية مالية كبيرة، فأنشأ قرية على نهر دجلة، جمع فيها المعذّبين والبسطاء من الناس كلهم، وانتشلهم من نار الحرب، غير أنّ الميليشيات الساندة للحكومة أحرقت الحيّ البسيط، وقتلت مَن فيه، وكان الهدف هو الأستاذ الأكاديمي الذي تضاربت الأخبار عن مصيره في ذلك الوقت.

(٩)

ارتشف قليلاً من الماء وهو يُكمل:

- غير أن الأستاذ(*) خرج ذات يوم من البّر، ومن مستودع الجثث

*) - الأستاذ .. شخصية أكاديمية (ربّما حقيقية) ظهرت في روايتي السابقة (عجائب بغداد) الصادرة عن الدار العربية للعلوم – ناشرون – بيروت -٢٠١٢. وهو شخصية إشكالية، تعرّض إلى الخطف من قِبَل ميليشيات مسلّحة عام ٢٠٠٧ إبّان القتال الطائفي، ودفعت أسرته فدية مالية كبيرة لإطلاق سراحه. وخرج الأستاذ بعدها بنوازع فكرية مختلفة. وكانت أفكاره السهلة

Telegram: @Arab_Books

المجهولة، وأعني من هذا المكان، ونادى الناس أن يتركوا العاصمة المريضة والمُدُن المنهوبة والخربة والموبوءة بالحروب الداخلية، ويبنوا حياً أخضر، على أنقاض الجثث المتروكة في العراء، فهُرع إليه الفقراء من الأديان والطوائف والمذاهب كلها، وآزروه، ونصروه، وتخلّصوا من أعباء الميليشيات والحكومات الهزيلة التي حكمها حزبٌ واحد، لا يعرف من السياسة غير التزوير والفساد واللصوصية، وتُغذّيه أذرع خارجية قريبة منه، وتُملي عليه ما تريد.

(١٠)

وجد أنه يلهث قليلاً:

- طبعاً مرّ وقت طويل بإعمار أرض الجثث حتّى أصبح هذا الحيّ كما تراه بعد أن انتقل الكثيرون من العاصمة إلى هنا، إلى حدّ مقبول، لكننا نأمل أن يكون هذا الحيّ هو العاصمة مستقبلاً.

خرج الياباني من إصغائه، وتساءل:

- أكيد لكم دوركم في بناء هذا المكان.

- لنا دور متضامن في إذكاء حاسّة الولاء للمكان، لا إلى الحكومات الطائفية المتعاقبة التي خرقت الحياة، وأفقرتْها.

الممتنعة قد جذبت إليه فقراء الناس والمستضعَفين والمنكوبين من تلك الصراعات الطائفية، فأنشأ قرية صغيرة من الصفيح والتنك على ضفاف دجلة، في محاولة لبناء يوتوبيا مَدينية متحضّرة، لا تحفل بالطوائف والأديان والسلوكيات النافرة المتشدّقة بها، غير أن الميليشيات تابعتْه، وأحرقت القرية بمَن فيها -كما ورد في الرواية السابقة، وظلّ مصيره مجهولاً حتّى ظهوره الشكلي في هذا النصّ، وبهذه الطريقة.

Telegram: @Arab_Books

صمتَ قليلاً، وهو يحكّ كعب لحيته، وأضاف:

- الأستاذ حالة نادرة في ظروف الحرب، سيّدي.

- وأين هو الأستاذ ..؟!

- لا أعرف بالضبط أين هو، لكنه يظهر كلّما استدعت الحاجة إليه.

وكما لو يقول حقيقية:

- إنه جسر عراقيّ للعبور من محنة إلى أخرى، ويظهر في وقته المناسب.

(١١)

وجد أنه اكتفى، وكانت مريم تنظر إلى إجهاده، لكنه أوضح:

- زوجتي دليلكم إلى الحيّ وأهله ..أنا اعذروني، فأوجاع السبعين تشلّ حركتي كثيراً. ما بقي لي إلا زوجتي مريم.

أشار إلى الكلب الأبيض الضخم:

- هذا كلبي الجميل معكم في كل خطوة، فهو دليل جيد أيضاً، واعتاد الضيوف كثيراً.

وأضاف معلومة:

- أولادي خارج البلاد بعدما يئسوا من خرابها .. أريدكم أن تغتنموا النهار، ومن ثمّ، نتحدّث كما تريدون.

شكره الفريق بانحناءات متتالية.

Telegram: @Arab_Books

(١٢)

وقف الكلب قبل سيّده، ومشى أمامه ببطء أمامه حتّى أخرجه من الصالة، في حين كانت الصُّحُفي المتدرّب يلتقط صوراً متتالية للروائي المجهَد، وكانت الشّابّة تُصوِّره، ووثّقت كلماته القليلة في كاميرتها الصغيرة.

Telegram: @Arab_Books

القصّة التي بدأت

(١)

تلاطمت غيوم داكنة في السماء، فألقت بظلّ كثيف على الأرض المنفتحة باخضرار غامق، وبدا الحيّ يكتسي بحلّة مطرية، مضيفاً على المكان شبكة مائية، أخذت تنزل بالتدريج.

قالت مريم وهي تشرح لضيوفها:

- فكرة الحيّ جاءت عقب الحرب، أو لنقل الحروب الطائشة التي مرّت البلاد بها، وقد سمعتُم شيئاً منها، قالها زوجي.

تطلّع الياباني إلى عينَيْها السوداوَيْن المضيئَتَيْن وهو يعصر رأسه، فيما واصلت بهدوء:

- تشكّل الحيّ الريفيّ على أساس الخراب الوطني الذي عشناه طويلاً، وبعد قتال مضنٍ مع جهاتٍ خارجية وداخلية، أدخلت البلاد والعباد في متاهات وأزمات نفسية واقتصادية.

وقف الكلب إلى جانبها وهو ينظر للضيوف:

- عشنا شهوراً وسنواتٍ طويلة من الرعب، تحوّلت فيها البلاد إلى مطحنة من القتال الخارجي والداخلي، وتحوّلت الحياة إلى فِرَق من

Telegram: @Arab_Books

الميليشيات التي تسيّدت كل شيء، وراح جزء كبير من أرضنا، وتدخّلت دول الجوار، واحتلّت الكثير في الشمال والجنوب والشرق والغرب، وحوّلتها إلى كانتونات طائفية، بدعوى محاربة الإرهاب.

(٢)

فركت أصابعها، ووجدت أنها قادرة على أن تستكمل قصّة المشروع:

- بغداد أصبحت بؤرة موت .. خَطْف وقَتْل وذَبْح .. والبلد صار ولايات طائفية، والسياسيون يتسابقون إلى إشعال الحروب المحلّيّة الطائفية والنهب واللصوصية بمشاريع وَهْمية، أفلست الخزينة، وجعلت الناس يأكلون التراب في نهاية الأمر.

كان الياباني يديم النظر في عينَيْها السوداوَيْن:

- كنتُ شابّة صغيرة حينما شهدتُ واقعة من وقائع الحرب والموت المجاني في العاصمة. يومها تعرّفتُ على السّيّد الروائي، وأصبح زوجي، فيما بعد. هههه.

انبثقت ابتسامة جميلة من وجهها، وبانت سمات جمال، تمكّن رجل البيئة الياباني من أن يلمحها بوضوح:

- كان عائداً من دولة خليجية لكتابة تقارير وتحقيقات صُحُفية عن العاصمة إلى مجلّة كان يعمل بها، فتورّط في البقاء ..حتّى هذا اليوم ..!

ثمّ كرّرت:

Telegram: @Arab_Books

- جاء قبل ثلاثين سنة موفداً من مجلّة خليجية، تُعنى بالسياحة والسفر والجمال .. لكنه بقي حتّى هذا اليوم!

(٣)

كانت يوكي الشّابّة تلتقط وجه السّيّدة الخمسينية بين لحظة وأخرى بكاميرتها الصغيرة، ومثلها يفعل الصُّحُفي المتدرّب:

- قد لا أستطيع تقريب الوصف بشكل صحيح .. إنها قصّة مؤلمة في نهاية الأمر أن تعيش في حروب طويلة متّصلة، لا نهاية لها.

وأضافت بوثوق:

- زوجي كَتَبَ رواية ضخمة عن الحرب، ولم يطبعها بعد .. يعيدها دائماً، ويقول إنها لم تكتمل.

وبما يشبه الإقرار للرجل الياباني، قالت:

- أنتَ روائي، سيّدي، وتعرف قلق الروائيّيْن.

هزّ الرجل رأسه المنشغل بمَشاهد ورؤى، تداخلت في لحظة المرأة الخمسينية، وما يزال يركّز في عينَيْها السوداوَيْن الواسعَتَيْن.

غيّرت مجرى الحزن الذي اكتنف صوتها:

- الناس هنا هم نتاج الحرب وضحاياها. تبعوا زوجي بعدما اختفى الأستاذ بظروف غير مفهومة حتّى اليوم، بأمل أن يظهر من جديد.

وأوضحت:

Telegram: @Arab_Books

- كانوا غرقى معنا، غير أنهم نجوا بأعجوبة.

(٤)

التفت الياباني إلى الصور، وسحبتْ عيناه الرجلَ الذي يشبه غاندي، والذي يلتفّ عليه بسطاء الناس.

تأمّله بدقّة، وابتسم فيما واصلت المرأة:

- رمّمنا الأرض بإمكانيات بسيطة بعدما نجونا من الغَرَق.

وكما لو تُقدِّم له معلومة:

- هؤلاء الناس كلهم الذين تراهم هنا كانوا غَرْقى ..!

وأوضحت:

- كانت بنا رغبة مُلحّة أن نعود إلى الريف، فالمدينة ساقطة، سيّدي، مهما كانت جميلة.

وجدتُه يُعيد النظر إليها:

- أنشأنا حيّاً موازياً للقرية التي اقترحها الأستاذ في أثناء الحرب، لكنْ، بأسس بيئية نظيفة، مهما كانت بسيطة، في محاولة لإنقاذ ما يُمكن إنقاذه من العاصمة التي صارت مزبلة ونفاياتٍ وجثثاً تمشي ...!

Telegram: @Arab_Books

الحُبّ

(١)

ثمّة إسطبل وخيول وأمهار وأبقار وبطّ ودجاج على مساحة مفتوحة بعد السقائف، وثمّة عرائش كروم وأعناب، تُشكّل أقواساً شجرية متتالية قريبة، كان الوفد يلتجئ إليها، كلّما اصطكّت السماء، وزخّت أمطاراً.

قالت المرأة:

- هناك مدراس للصغار، وأكثر من روضة.

تساءل رئيس الوفد:

- منذ متى عملتُم هذا المشروع؟

أجابت السيّدة الخمسينية :

- منذ أكثر من عشرين سنة تقريباً، بعدما أصبحت العاصمة عبارة عن مجمّعات سَكَنية وبناء عشوائي بلا ضمير رقابيّ ولا وطني، وشوارعها تشبه أرصفتها، وطغاتها يتجدّدون بأسماء مختلفة، وحروبها أحرقت الأخضر واليابس في الحياة.

تأفّفت:

- قتلوا نهر دجلة من كل مكان.

Telegram: @Arab_Books

وأضافت على مضض:

- اقترفت الحكومات المتعاقبة جريمة بيئية كبيرة، حينما قتلت النهر، وعَدَّتْه شيئاً ثانوياً في العاصمة، لا شرياناً يغذّي الحياة فيها.

(٢)

كان نهر الحيّ الصغير ومثله الأنهر الأصغر المارّة من تحت القناطر الخشبية، يلتقط حبّات المطر المتقاطرة، وعلى صفحته، تتعاقب الغيوم الثقيلة، في حين أخذ الفريق يحتمي تحت الأشجار الوارفة.

أخرجت المصوِّرة من حقيبة معلّقة على ظهرها مظلّة صغيرة، بحجم صحن الشاي، وركّبتْها على الكاميرا، وخرجتْ من تحت الأشجار، تُصوِّر النهر المرقّط بالمطر، وأجزاء من الحدائق وبساتين النخيل المندفعة في العمق الأخضر، وحينما اصطفقت السماء بالرعد، احتمى الكلب بين سيقان الفريق الذين أفسحوا له مجالاً بينهم.

نادت المرأة عليه، فهرع مخذولاً إليها، يتشمّم بنطالها، وهو يُنصت إلى خرير المطر الذي أخذ يشتدّ، ويهطل بغزارة، فاضطرّت المصوِّرة أن تصعد على قارب وحيد وسط النهر، وتحتمي بمظلّة زرقاء، وكاميرتها الصغيرة مشرَعة لتصوير الجميع من تلك الزاوية.

(٣)

قال الروائي الشيخ لمريم أنه يتأسّف لخروجها تحت هذا الطقس، لكنه تساءل:

Telegram: @Arab_Books

- هل أنتم من سَكَنَة العاصمة بالأساس؟

لاذت عينا المرأة بالمطر، وهي تقول:

- تقريباً .. أنا من العاصمة .. لكن زوجي كان مهاجراً سنوات طويلة.

نظر في عينَيْها السوداوَيْن، وقال كما لو وجد مدخلاً مناسباً لشيء، يشغل رأسه:

- أنا أيضاً لستُ من طوكيو العاصمة.

ظلّت تنظر إليه:

- أسكن في جزيرة هونشو في منطقة تشو غوكو .. وهذه في هيروشيما .. أظنّكِ سمعتي بهيروشيما؟

هزّت مريم رأسها أكثر من مرّة:

- أكيد أعرفها .. العالم كله يعرف هيروشيما.

نظرا إلى بعضهما:

- العالم كله يعرف قذارة أمريكا عبر كارثة هيروشيما النووية.

سَكَتَتْ وهي تجيل النظر في ما حولها.

قال هيروشي:

- من مأساة هيروشيما ونكبتها، صار عندي مزاج، لأن أشاهد العالم الذي تعرّض إلى نكبات نووية وحربية ومعارك واحتلالات، وساعدني بذلك أن أكون صُحُفياً.

أدخل يدَيْه في جيبَيْه الجانبيَّيْن:

- الحُبّ صهرني أيضاً .. فالحُبّ مثل الحرب، سيّدتي، هههههه.

ضحك، وضحكت مريم وهي تتطلّع إلى وجهه الذي اكتسى بشيء من الخجل:

- الحُبّ مثل القنبلة النووية، سيّدتي.

ضحك وحده، ثمّ استأنف:

- عندما كنتُ شابّاً، كنتُ أمارس الصحافة، ولكي أُثبت لحبيبتي أنني شجاع، كنتُ أذهب إلى المناطق الساخنة في العالم .. في أفغانستان والبوسنة والهرسك والشيشان مثلاً، ثمّ جئتُ إلى بغداد في الاحتلال الأميركي لها، وبقيتُ أوقاتاً طويلة فيها.

كان البخار يتصاعد من فمه، ومريم محشورة اليَدَيْن تحت إبطَيْها:

- زرتُ بغداد للمرّة الثالثة أو الرابعة في ضراوة الحرب الأهلية، إن كنتِ تتذكّرين تلك الحرب، ورأيتُ الأهوال، وجُرحت فيها، وكاد حريقٌ يقضي عليّ.

كان المطر يخفّ، والصُّحُفيّ المتدرّب منهمكٌ بتصوير عصافير شاردة، حطّت على أشجار قريبة.

أشار الرجل بيَدَيْه:

- هذه قصّة حُبّي للصحافة، وسببها امرأة .. هههه.

ضحك وهو يستدرج ذاكرته البعيدة، فيلتقط منها هذه القصّة، ثمّ عاد، ليُكمل:

- لكل حَدَث، سيّدتي، قصّة، لكنّ هناك قصصاً، تكتفي بقَصّها السريع، ولا تأويل وراءها .. وهناك قصّة يستوجب شرحها وقتاً طويلاً، وفكّ رموزها، وإيضاح المخفيّ منها .. أليس كذلك؟

هزّت المرأة رأسها وعيناها تختلجان بشيء ما، فتساءلتْ:

- أكنتَ في الحرب في بغداد؟

هزّ رأسه:

- كنتُ .. ألم أقل لكِ إنّ الحُبّ دفعني للمغامرة ؟!

- الحُبّ فقط؟

- في البداية، كان الحُبّ.

- ومن ثمّ؟

- الحُبّ ذاته .. لكنْ، ليس للمرأة ذاتها، إنما للمهنة التي أوصلتْني إلى العمر السبعين.

(٤)

خرج الفريق والسّيّدة بعد توقّف المطر، فبانت الأرض العشبية أكثر نعومة ورقّة واخضراراً، وكان الرذاذ يُكسبها لوناً مائياً معلّقاً على أطرافها.

سبقهم الكلب في ممشى من العشب، لكنه كان يتوقّف، كلّما عرف أن المسافة بينه وبينهم تطول إلى حدّ ما.

Telegram: @Arab_Books

ثمّة رائحة مبلّلة خرجت من مياسم الأرض، وانتشرت في المكان.

(٥)

عادت المرأة تسأل:

- أتتذكّر شيئاً من تلك الحرب؟

كان حذاؤه السميك يسحق العشب وهو ينظر إلى أسفل:

- أتذكّر شيئَيْن.

قفزتْ يوكي على العشب المبلّل وهي حريصة على لقطة ثنائية، تجمع المرأة بالرجل.

- بسبب الحُبّ، كما قلتُ لكِ، أجريتُ لقاء مع قطّة بيضاء، لترى حبيبتي أني أستطيع استنطاق حتّى الحيوان في زمن الحروب. هههههه.

ابتسمت مريم، بينما واصل:

- كان هناك مهرجان شعبيّ صاخب، يقوده رجل مجنون ضدّ الحكومة، وكان يتشبّه بأحد الأنبياء، كما قالوا وقتها.

مطّت المرأة شَفَتَيْها:

- وهل كلّمتْكَ القطّة؟

- كان ذلك من أروع الذكريات في حياتي.

أدخلت المرأة يَدَيْها بجيبَيْها وهي تسأل:

Telegram: @Arab_Books

- والشيء الثاني؟

- حريق وانفجارات ورعب وميليشيات سدّت الأفق علينا، وقتلت قرية بكاملها .. أعتقد أن الناجين كانوا قلّة قليلة .. خاصّة الذين التجؤوا إلى النهر .. وطبعاً كنتُ واحداً من الذين فلتوا من ذلك العقاب المخيف.

- وذلك النبيّ، هل قُتل؟

- تبخّر، أو اختفى ..أظنّه هرب لحظتها .. لأن صُحُف اليوم التالي تخبّطت بذِكْر مصيره لهول الحرائق التي أشعلها خارجون عن القانون .. منهم مَن قال إنه احترق، ومنهم مَن ذكر أنه اعتُقل، ومن ثمّ أُعدم، بسبب إلحاده .. لكن أغلب الصُّحُف شكّكت بمصيره، وقالت إنه تمكّن من الهرب في وقت مناسب.

صمت قليلاً، وقال:

- ذلك يوم لا يُنسى .. دعيني، سيّدتي، أتذكّر كل شيء، وأخبركِ.

لكنه تساءل بشيء من الشّكّ:

- هل، سيّدتي، كانت صغيرة عندما كانت الحرب قائمة؟!

(٦)

نادت المرأة على الكلب:

- بوبي ..خذنا إلى روضة عصافير الغد.

استدار الكلب إلى ممرّ عشبيّ آخر، تُظلّله سقيفة عنب، تُنقّط حبّات من المطر، وتمتدّ معه حتّى مدخل المدرسة الضاجّ بصخب الصغار.

Telegram: @Arab_Books

الكتابة تحت المطر

(١)

كان الروائي السبعينيّ الآخر يجلس تحت ظلال أكثر من شجرة متكاتفة الأغصان، وقد تدفّأ بمعطف صوفيّ ثقيل، يتأمّل الأجواء الممطرة والغائمة، بروح الطفل الذي يريد أن يرى كل شيء لحظة وقوعه، مستأنساً بالرذاذ المتطافر من حوله.

(٢)

عيناه هاربتان، وألمه يصعد ويهبط، فيختلج رأسه الصامت برُؤى كثيرة.

(٣)

يُمسك قلماً، رأسُه يتوجّه إلى آخر ورقة، ينقر فيها بين لحظة وأخرى على الدفتر الكبير الذي يتنقّل معه.

(٤)

وضعتْ له الفتاة السمراء فنجان قهوة ثالثاً على جذع مقصوص، تحوّل

Telegram: @Arab_Books

بمرور الزمن والعادة إلى منضدة مألوفة للشاي والقهوة والحليب وحبوب المفاصل والسّكّري، في الأوقات التي يمضيها في الكتابة.

(٥)

كتب بضع كلمات حائرة، وتوقّف كما في كل مرّة.

غامت عيناه في ذكرى لا تفارقه، كما لو يستدرج روايته المؤجّلة في زاوية من زواياها الحمراء. وهي الزاوية التي تهرب منه في العادة، فيلاحقها كصيّاد، لكنها تختفي النار والماء معاً.

أشياء كثيرة تلتحم كلها مرّة واحدة، وتتقدّم إليه ككتلة متضامنة، لا تريد أن تنفرط، لكنها محاطة بضباب أو دخان، يصعب فَرْزها.

ليست الكتابة غريبة على رجلٍ حاذق مثله، لكن الغريب أنه لا يستطيع أن يكتب بمزاج الكتابة المعتادة لديه في رواية الحرب التي شغلتْه ثلاثة عقود، كما لو أن الكلمات تتحوّل عبر دفتره الذي يكتب فيه منذ ثلاثين سنة إلى حشرات قاضمة، تقضم الأوراق بالتدريج، وتمحو أثرها، أو تتحوّل إلى شرارات صغيرة، سرعان ما تكبر، وهو يمضي بقلمه إلى ألْسنة لهب، تبدّد عليه استمراريّته، وتُشعره بالضيق والاختناق بدخان أو ضباب.

(٦)

بالحبر لا يثبت أيّ شيء كبير.

يقول لنفسه ..

هل الدم أمضى من الحبر؟!

يتساءل ..

الحضارات كلها وثّقها الحبر إلا حضارات الدم، نحتاج فيها إلى حبر آخر، نستخرجه من دماء القتلى والمغدورين، على ما يبدو .. إنه حبر الرواية التي لم أكتبها بعد.

(٧)

امتزج الزمن والضباب، وتحوّلا إلى كلمات.

انحنى على آخر ورقة مفتوحة أمامه.

· هناك خيول تصهل على الورقة.

· هناك عصافير تحترق في الذاكرة.

· هناك نهر خائف يهرب بعيداً عن الموت.

· هناك كلب يقضم الجثث المَرمية في العراء.

· هناك حقول يابسة، وبيوت مأكولة .

· هناك بساتين متفحّمة، وقامات نخل ملتوية.

· هناك صفصاف أسير، وزرع يبكي.

· هناك ورود تستفيق على صراخ غَرْقى.

· هناك عشب مُبلّل بالدم.

Telegram: @Arab_Books

· هناك مطر أسود.

· هناك كلمات مُتعسّرة بالولادة.

· هناك صور تغيب، ولا تغيب.

· هناك ضباب أكثر من المعتاد.

ارتشف قهوته، وعاد ينقر في الورقة.

· هناك مريم التي احتمت بالصليب.

· هناك أبي المهاجر الذي يكره الوطن.

· هناك بحر بعيد وسفن ومراكب.

· هناك نهر أعزل، وصيّاد جثث.

· هناك نساء تغرق.

· هناك هويات، مات أصحابها.

· هناك قرية، لم تدُم طويلاً.

· هناك أمّ، قصّوا ثديها.

· هناك جيش، يقاتل طواحين الهواء.

· هناك حريق بأرجل طويلة.

· هناك بوذا المخلّص.

· هناك نبيّ، يوزّع الحلوى على الصغار.

Telegram: @Arab_Books

· هناك أصابع وزوابع ورياح.

· هناك رجل وذكرى.

· هناك موت يموت في كل لحظة.

· هناك صليب.

· هناك جامع.

· هناك طفل.

· هناك حلم .

· هناك متسوّلة.

· هناك رصاص.

· هناك قَتَلَة.

· هناك وطن مَرّغوه في الطين.

· هناك نحن .. صرنا أكثر من الطين طيناً.

رفع رأسه حينما سقطتْ قطرة مطر من الشجرة على بؤرة الورقة، فانتشر الحبر بين الكلمات، واختلطت المفردات ببعضها.

· تداخل النهر بالدم،

· وغرق الرجل بالمطر،

· فتبلّلت الهوية في جيبه.

Telegram: @Arab_Books

· صادُ الرصاصة على حبره، اغتالت الصيّاد، ودمجت حروفه بالقارورة.

· وانزاحت إلى الأمّ التي أكلت نصف بوذا، وتشظّت سائحة على النبي القديم، فمحت نصفه.

· في حين تفرّعت شظية صغيرة من القطرة المتكوّرة في بؤرة الورقة،

· وأزاحت ذراع الصليب،

· ومرقت تلتهم ميم الميليشيات،

· وقاف القدر.

· طاء الطفل فقدت همرتها،

· وهاء النهر تدحرجت مكانها.

(٨)

عادت السمراء، ورفعت الفنجان البارد، وهي تنظر إلى سيّدها بعطف.

(٩)

استلّ الورقة المبلّلة من دفتره العتيق، وأعطاها لفتاته السمراء التي حملتْها بحرص، وترك عينَيْه تطوفان في مروج الجثث القديمة.

(١٠)

طلعت الشمس من تحت غيمة ثقيلة، فأضاءت المكان بنور، كشف لمعان الحديقة حوله، وتبدد الرذاذ من حوله.

Telegram: @Arab_Books

عادت العصافير المختفية بين الأغصان ترفرف، وتنشر أجنحتها حول صمته.

(١١)

تقافز الكلب الأبيض، والتصق بالسّيّد الجالس تحت سقيفة الأشجار.

تشمّمه، ثمّ صعد عليه حتّى غطّاه بجسده الضخم، ومريم تنهره.

بوبي، اذهبْ من هنا.

يذهب بوبي مُطيعاً.

تحتضنه مريم، وتُقبّل خدّه:

- كيفكَ الآن؟

(١٢)

يعود الفريق مُبلّلاً بالمطر.

(١٣)

الصُّحُفي المتدرّب يلتقط هذا المشهد العاطفي بفرح طفوليّ.

Telegram: @Arab_Books

نهر بغداد

(١)

ينهض الروائي النحيل ذو القامة الفارعة مُرحِّباً بضيوفه من جديد، ويندفع الجميع إلى الصالة قبل زخّة المطر الأخيرة التي جلبتْ معها رعداً، وبرقاً، ظلّ يرسم خطوطاً فضّيّة متّصلة.

استبدل الروائي الياباني مكانه، فصار بمواجهة الصور المُحتشدة على الحائط. صور كثيرة، كأنها لرجل حروب، أو زعيم سياسي شعبي.

قال الروائي الفارع:

- كيف هي الجولة؟

- جوّ بيئي صحّيّ للغاية، وعزلة عظيمة، تليق بمبدع مثلكَ .. الأرياف مُلهِمَة ومُشجِّعة على الحياة.

ابتسم الرجل قائلاً:

- رواياتي كتبتُها هنا إلا واحدة، تعسّرتْ عليّ منذ ثلاثين سنة، وأنا أفكّر بها!

(٢)

دخل الكلب قبل السمراء التي جاءت وهي تدفع عربة مأكولات نهرية من سمك إصبعي صغير مع مقبّلات متعدّدة.

Telegram: @Arab_Books

قال الياباني وهو يشعر بالارتياح أكثر من أيّ وقت مضى:

- الرواية الأولى هي الحُبّ الأوّل.

قال الرجل:

- يبدو لي أن الكتاب الذي لم يُكتَب حتّى الآن هو الحُبّ الأوّل المؤجَّل.

ضحك العجوز، ثمّ تساءل:

- قلتَ لي إن رواية تعسّرتْ عليكَ!

- رواية واحدة لا أستطيع كتابتها. أفكّر بها منذ ثلاثة عقود، وكلّما أشرع بكتابتها، أكتب غيرها ..!

قال العجوز بخبرة:

- أظنّ أنكَ تبحث عن المفقود من تجربة واقعية .. أليس كذلك؟

- إلى حدّ ما، أستطيع أن أقول نعم .

- في هذه الحالة، الخيال يُسعفكَ كثيراً .

- الواقع أطبقَ عليّ تلك الفترة كلها.

- الخيال سيفتح لكَ الواقع بطريقة ناجحة.

- أحياناً يكون الخيال عائقاً لتوثيق تجربة حياتية فذّة.

- لا تقلقْ من هذا. خذْ كامل حُرّيّتكَ به، فستجد الواقع أكثر انفتاحاً وصِدْقاً.

- يُقلقني أني لا أريد التوثيق للتوثيق، إنما إنجاز يرتقي بالوثيقة إلى فنّ، وليس إلى حكاية عابرة.

- وهذا خيالُ كلِّ روائي وسارد .. أظنُّكَ مُوثِّقاً جيداً لأحداث بلدكَ، مع أني لم أقرأ لكَ، للأسف، لكني أهجس أنّ فيكَ روحاً فنّيّة صعبة المراس.

كانت سيوف البرق تضرب النوافذ والستائر، والمطر الوفير يفيض بين الحقول والمصانع الصغيرة، وثمّة صفاء حميميّ يغمر المكان.

دخلت السمراء وهي تحمل كتاباً، وقدّمته لسيّدها.

كَتَبَ على صفحته الأولى إهداءً، وقدّمه إلى صديقه الياباني:

- هذه الرواية الأولى .. عجائب بغداد التي حصلتْ في أثناء الغزو الأمريكي القديم، وفيها خيال كثير، لم يخرج عن واقعيّته أبداً .. لكن الذي لم أكتبه هو الذي يُؤرقني حتّى اليوم.

(٢)

التقط العجوز شيئاً من صحنه، ومثله فعل الآخرون تحت رعد، جعل الرجل ينظر من النافذة بين لحظة ولحظة أخرى، كأنه يبحث عن شيء، فتنهض مريم وراءه، تنظر هي أيضاً إلى الحديقة الغارقة بالمطر.

يقف الكلب في الباب، يتشمّم روائح المطر والزرع، غير أنه سرعان ما يفرّ مع صوت الرعد القاصف.

أدركتْه السمراء أكثر من مرّة، وحملتْه إلى الداخل، لكنه يفرّ منها بين لحظةٍ وأخرى.

Telegram: @Arab_Books

نهض العجوز ناظراً إلى الأجواء المائية بفرح طفوليّ نادر.

كانت يوكي تنزوي في الطارمة، وتلتقط المطر بعدستها الصغيرة.

تُصوِّر البحيرات المتجمّعة في حديقة العشب، والمياه النازفة من السطح، وتتتّبع مجراها.

سيول منتظمة، تملؤها رغوة بيضاء.

(٤)

استثمر العجوز وقفته، وقد سحبت ناظرَيْه صور الحائط المُتكدّسة إلى بعضها. أخرج نظّارة رفيعة بلا ذراعَيْن، وركّبها على أنفه، وهو يمضي في سياحة طويلة مع تواريخ، قد يحضر بعضها، لو أسعفتْه الذاكرة السبعينية كثيراً.

قال وهو يتأمّل الصور:

- قبل أكثر من عشرين سنة، كتبتُ عن تجربتي الشخصية في رواية ضخمة عن بلدكم، أسميتُها "نهر بغداد ".

صمت قليلاً، وأضاف:

- أحمل منها نسخة .. لكنكَ، للأسف، لا تقرأ اللغة اليابانية.

استدار إلى حقيبة صغيرة موضوعة على مكان جلوسه، وأخرج كتاباً سميكاً.

Telegram: @Arab_Books

كتب إهداءً على الصفحة الأولى باللغة اليابانية، ووقّعه، وهو يبتسم، ثمّ قرأه من جديد:

私の友人の小説家の創作者
バグダッドや川の驚異バグダッド遅れ、強力な30年の間に
あなたと私は離れた2つの場所にあります
しかし、私たちは人類の参加について書きました
あなたはすべて正確に真実を住んでいました
人間が主張するだろうとして、私は確信を持って住んでいました
あなたは私の完全な理解を持っています

طلب من المترجم أن يقرأه للسّيّد الروائي، كما لو يريد الاستماع إلى إهدائه بغير لغته:

"صديقي الروائي المُبدع

بين عجائب بغداد ونهر بغداد فاصلة زمنية، قوامها ٣٠ سنة

أنا وأنتَ في مكانَيْن بعيدَيْن

لكننا كَتَبْنا عن مشتركات إنسانية بيننا

أنتَ عشتَ الحقيقة، بكل دقّتها

وأنا عشتُها بيقين إنسانيّ، كما أزعم

لكَ منّي كل التقدير."

شَكَرَه الروائي، وأحنى رأسه، ونهض مُتقبِّلاً الرواية منه، لكن الرجل استدرك لفوره:

- مؤكّد أنكَ لا تستطيع قراءة الرواية، سيّدي، بسبب اللغة، لكني

سأترك لكَ بعض الوثائق الفيلمية التي ستُفاجئكَ عن يوم، لا تنساه، فلعلّكَ تستدرك الرواية المُتعسّرة لديكَ .. أقول لعلّكَ ..

شَكَرَه الروائي من جديد، وتأمّل غلاف الرواية: طالعه العنوان الأزرق الذي يحتلّ أكثر من ثلث الغلاف، وتحته مدينة، لا تظهر منها إلا بعض العمارات القليلة، وتحت العمارات خبطة عشوائية من المدينة، ضيّعت معالمها كلها، كأنما ضباب يستولي عليها، أو حبر يسيح ويتداخل على المدينة المصوّرة من أعلى. وعلى الغلاف الخلفي موجز للرواية، كما بدا له، وصورة المؤلّف، على عينيه نظّارة مائية.

(٥)

دخلت المُصوِّرة مبلّلة، والكلب يتقافز أمامها، ينظر إلى العدسة.

صاحت عليه السّيّدة، فأقعى بهدوء، فيما المصوِّرة تلتقط الكلب من زواياه كله، ورأسه يدور معها، حتّى رفعت العدسة إلى الحائط، والعجوز الذي عاد يتفرّس بالصور المصطفّة بنظّارته الرفيعة.

أنا بوذا

(١)

انشغل أعضاء الفريق البيئي بمعاينة المعرض الدائم على جدران الصالة.

دار العجوز دورة كاملة حتّى استوقفتْه صورة رجل، يحيط به جمهرة من الناس، كلّما تطلّع إلى الحائط .

شعرٌ أبيض، ووجه نحيف، وخطاب حماسيّ محنّط في هذه اللحظة.

اقتربت المصوِّرة من شبيه غاندي، وأشعلت ضوءاً كشّافاً من كاميرتها الصغيرة، سطع على الصورة.

بدت أكثر وضوحاً، كما لو استُبدلت صورةً أخرى.

(٢)

اقتربتْ مريم من العجوز:

- أتعرف هذا؟

خلع نظّارته، ثمّ أعاد وضعها مُصغياً إلى نداء الصورة البعيد.

Telegram: @Arab_Books

كانت لحظة طويلة، تتكاثف وتتجمّع في بؤرة ما، ثمّ تفترق، ثمّ تعود مُشوَّشة بسنوات الرصاص والحرائق.

كان زمناً مُلوَّثاً، وكانت بيئته تحترق كل لحظة، فانغمر العجوز بالصمت والصخب.

حكّ ذقنه، وهو يستعيد صورة غاندي النحيف قبل ثلاثين عاماً.

ابتسم لذكرى مفهومة ويقينية.

خرج من صمته، ليقول للمرأة:

- لستُ سيّئ الذاكرة جدّاً .. لكني أحسب أن هذا الرجل كان يأتي بدِينٍ جديد في وقته .. أظنّه تشبَّه بأفكار بوذا، أو كونفوشيوس!

تُدرك السّيّدة الخمسينية أن الرجل يطوف حول حوادث بغدادية قديمة، لكنه يتقدّم الآن إلى الذكرى الحَيّة في ذاكرتها الغارقة بالدم والنار والخوف.

عاد العجوز إلى مجلسه متمتماً:

- هذا ما كنتُم تُسمّونه الأستاذ .. طاردتْه الميليشيات، لأنه قال أنا نبيّ أو بوذا أو شيئاً من هذا الكلام.

كان ينظر إلى عينَي المرأة السوداوَيْن، وهو يشير إلى إحدى الصور:

- وهذه الصورة كنتُ قريباً منها. ربّما أنا مع الحشد المتجمّع حوله.

تساءلت المرأة:

- هل شهدتَ واقعة مؤلمة هنا؟

Telegram: @Arab_Books

ردّ مؤكّداً:

- .. وأصبتُ برصاصة في ساقي. لا أعرف كيف نجوتُ!

ثلاثون سنة تتقدّم ببطء أمامه:

- المصوِّر الذي كان معي صوَّر كل شيء. ترك كاميرته مفتوحة على الحَدَث، وقاوم ذلك اليوم بشجاعة.

تسلسلت أفكاره بالتدريج:

- كان يجرّني وأنا جريح مُغمى عليّ ..

شردتْ عيناه:

- وعدسته المعلّقة على ظهره تُصوِّر ما خلفنا من حرائق ..

تابع بهدوء:

- أتذكّر أنّ كل شيء حدث في النهار .. كان كل شيء واضحاً.

(٢)

انقطع المطر.

خرج الكلب الأبيض إلى الحديقة، يتشمّم الأزهار والأوراق والفضاء.

خرجت الخادمة تشفط الماء المتجمِّع هنا وهناك، بمكنسة كهربائية.

كان العشب المبتلّ يضفي طراوة على العيون التي تنظر إليه من نوافذ الصالة.

Telegram: @Arab_Books

مريم .. الرواية المقدّسة

(١)

· هذه مريم الحبيبة.

· صغيرتي المدلّلة، وصديقتي، وزوجتي.

· أنوثة مبكّرة جداً، وكيان يريد أن يتكامل بعد قليل.

· من أجلها، لم أفكّر بالعودة في ذلك الوقت.

· بقيتُ أخوض في النار والماء والطين حتّى تبقى معي،

· وأنا المعتاد على الجمال والسياحة والسفر،

· كأبي المهاجر من الوطن منذ شبابه الأوّل.

(٢)

· مريم عصفورة مسيحية، بجناحَيْن من فضّة.

· جذبتْني كالعطر النادر والغريب والثمين،

· وأبقتْني على ثوبها بصمة حَيّة.

· تطير مريم كفراشة في حقول النار.

Telegram: @Arab_Books

· ما كنتُ أحسب أن السنوات تمضي هكذا بسرعة جنونية،

· فنكبر معاً، ولا نموت، بل نتوالد كالهواء الأزرق.

· ونبقى في لحظة تاريخ جديد، كَتَبَهُ القَدَرُ.

(٣)

· الآن أدركتُ أن القَدَرَ ليس هو الموت، كما قال الأستاذ - بوذا القرية ذات مرّة،

· والموت ليس هو القَدَرَ فقط مثلما أرى.

· كل شيء له ميزانه وظرفه،

· والإنسان دُمية صغيرة بين الاثنَيْن، تقف على موجة مترنّحة.

(٤)

· مريم الخمسينية ما تزال مريم العشرينية.

· فتاة الحجاب المسيحية الذي وضعوه على رأسها، من دون أن تعرف لماذا يريدون تغيير شكلها وجوهرها،

· في اللحظة نفسها التي تريد أن تكتمل فيها، لتصبح أنثى تامّة.

· سرقتُ عينَيْها السوداوَيْن البارقتَيْن منها قبل ثلاثة عقود،

· وأودعتُها في دفتر العشق الكبير.

· كبرنا، يا مريم .

Telegram: @Arab_Books

· لكنّ ما فينا من عشق بقي بحلاوته وطفولته،

· وما مرّ بنا مرّ على غيرنا،

· لكن، لكل عشق كتابه الأثير.

(٥)

تقول لي دائماً:

· منذ أن نطّ الشباب في عروقي وجدتُكَ.

· دفعني شيء ما إليكَ بقوّة قبل أن أراكَ.

· كان الرصاص وقتها يقتل حتّى الحجر النائم.

· دفعتْني ظهيرة حارّة إلى أن أراكَ لحظة واحدة فقط، وأمضي.

· حسبتُ الشباب الذي في داخلي فاجأني يومها أن تكون أنتَ،

· فكان حسابي صحيحاً منذ أوّل خطوة قادتْني إليكَ.

· تخطّيتُ حواجز الميليشيات القذرة،

· وعصابات الشوارع الخلفية،

· وسُكارى الأحياء اليائسين، لأجدكَ تنتظر.

(٦)

يا مريم،

Telegram: @Arab_Books

· دفنتُ رأسي في رأسي سنواتٍ طويلة، كي أُنهي كتاب العشق الأكبر"عشق مريم".

· يومها سقطتُ على الأوراق، ونزفتْ عيوني دماً ودمعاً.

· بدأ تاريخي منكِ.

· من مداهمة الغوغاء بالرصاص والنيران والعبوات لِفَقْء عينَيْكِ السوداوَيْن البارقَتَيْن.

· أسقطتُ أوراقي القديمة في سلّة، وضاعت في متون الحياة بعد اجتياز النهر ليلة كاملة، بدت بطول الزمن.

· كنتُ لا أعرف منها إلا السواد الحالك،

· وفوضاها المشتعلة،

· واصطدام الجثث ببعضها،

· وصراخ الغَرْقى قبل أن يغرقوا.

(٧)

صحتُ:

· مريم .. مريم.

· فذهب صدايَ إليكِ،

· ودلّتْني رائحتكِ عليكِ.

· لكنكِ تنفلتين من جسدي الجريح مثل كرة الزئبق.

· أعثر عليكِ بصعوبة في ظلام النهر،

· وتعثرين عليّ، وتُلبسيني الصليب.

· سيحمينا يسوع ابن الله.

· وما كان عندي شيء أضعه على رقبتكِ سوى يدي المجروحة.

· أبي تركني على السواحل، ومضى.

· كان يكره الوطن منذ وقت طويل،

· ولم يقلْ لماذا يكره الوطن بهذه البشاعة!

· غادره إلى غير رجعة.

· ولم يترك وصية لي،

· غير أنه كان حزيناً ومرتبكاً حينما احتلّه الأمريكيون ذات يوم.

· يومها تذكّر أن له وطناً وماضياً.

· فبكى، وتلاشى، وانفطر قلبه،

· ولم أعد أراه، وإلى هذا اليوم.

(٨)

· مريمي الجميلة، الطفلة، الصغيرة، الكبيرة.

· أيقونة الحيّ الريفي، وحربة البيئة النظيفة، ومطر الحقول الأخضر، وسرّة المكان.

Telegram: @Arab_Books

· نحلة دوّارة على الزهور والورود كلها.

· غرقتْ معي، فانتشَلْنا بعضنا في لحظة موت مشتركة.

· كان بيننا دم ينزف، وفضاء مُطوَّق بالنار والدخان.

· قلتُ لها وأنا في لحظة الموت:

· أنقذي نفسكِ، يا مريم العذراء،

· فما أنا إلا مجنونٌ طائش، سلختُ نفسي منّي، وجئتُ إلى بلاد الموت.

· خذي هويّتي وجواز سفري ذكرى لوطنٍ، بحثتُ عنه، فطردني، وأراد قتلي.

· لكنّها ظلّت تمدّني بالقوّة،

· وكانت تكبر مع اللحظات،

· وتفهم أن الحياة لن تكون لهم وحدهم.

· لن نموت، وسيحمينا الرّبّ ويسوع ابن الله.

· قلتُ لها أبي ما ترك لي غير ذكرى قلقة، ووَهْمٍ، اسمه وطن، غامرتُ من أجله، كي ألتقيكِ، يا ابنة يسوع.

· وكانت مريم تكبر أكثر، وتتسامى، وتتكامل في تلك اللحظة الخطرة.

· كانت تُصارعُ الرصاص والموت متشبّثة بي كَقَدَر آخر،

· والنهر ينقلب إلى جحيم وحرائق، تتّصل ببعضها حتّى لكأنّ الكون كله يحترق.

Telegram: @Arab_Books

(٩)

لا أنسى صيحة المعلّم الكبير أستاذ اللحظة المناسبة، فما تزال ترنّ بأذني .. أحْرَقوا بغداد أولاد الزنا.

وكان أولاد الزنا يحرقون بغداد فعلاً.

(١٠)

هذه مريم الصغيرة التي تقود أسراباً من الفراشات في حَيّها الريفي، وتصنع للعصافير ملاذات آمنة في جوف قلبها، وتزرع الشجيرات في كل مكان، تجده يتيماً.

مريمي الوحيدة التي سرقتُها من النار والنهر، وسرقتْني من النار والنهر.

أقول لها، وهي تسندني:

- لم أكتبْ كتابي الأخير بعد.

تقول لي الآن وهي تجفّف ورقة أخرى، داهمتْها قطرة مطر:

- سيشحن ذاكرتكَ هذا العجوز الياباني، فقد كان شاهداً على موتكَ.

وأسألها:

- أين وصلنا؟

- وصلنا إلى هنا .. إلى نظافة الروح وبياض الضمير.

- لكن ضميري يُعذِّبني، يا مريم.. لم أقدّم شيئاً مهماً بعد.

تضحك بوجه باسم:

Telegram: @Arab_Books

- اليابانيون اخترعوا مَرهماً لإزالة العذاب من الضمير وكل شيء محزن في حياة الإنسان.. سَلْ صاحبكَ الياباني، فسيُعطيكَ وصفة العصر. الحضارة الجديدة أن تعيش بلا ذكرى قاسية .. الحضارة أن نبقى على قيد الحاضر، ونصنع التاريخ من جديد.

(١١)

كتبتُ عن مريم كتاباً ضخماً، أسميتُه "عشقُ مريم"، أوردتُ فيه علوم الأوّلين والآخِرين عن كلّ هوى وغرام وعشق وصبابة وهيام، على مرّ التاريخ.

اكتشفتُ فيه أن مريم تناسخت عبر التاريخ والعصور والقرون.

في كل عصرٍ مريم واحدة، لن تتكرّر.

لكن مريمي اختصرت مريمات التاريخ،

فكانت الرواية المقدّسة التي لا أَمَلُّ من قراءتها، ولا أتعب.

Telegram: @Arab_Books

كنتُ أخاف على مريم

(١)

على الربوة المرتفعة المطلّة على النهر، نبح الكلب الأبيض.

تنبّهتْ مريم إلى قدوم سيّارة سداسية الدفع، برَقْمها الديبلوماسيّ، ولونها الأحمر، كشعلة متوهّجة تحت شمس ما بعد المطر.

تسابق معها الكلب، وقادها إلى مدخل الحديقة والدار، وهو يدور حولها.

داعبتْه الفتاة اليابانية، ومشّطتْ شعره بأصابعها الناعمة.

استقبلتْهم مريم بابتسامة واسعة، وصافحها العجوز بمودّة:

- قلتُ لكِ في اللقاء الأوّل إن الدنيا صغيرة، لكن عصر الاتّصالات جعلها أصغر، وحشرها في علبة بحجم الخاتم.

حيّاهم الروائي الفارع ذو القامة الطويلة، وصافحهم، وحرصتْ مريم أن تسنده بذراعَيْها.

قال الياباني:

- منذ ظهيرة أمس وحتّى اليوم ستكون بالضبط ٢٤ ساعة على لقائنا

Telegram: @Arab_Books

الأوّل .. الزمن سريع، يا صديقي، وإنّ ثلاثة عقود مرّت كأنها هذه الـ ٢٤ ساعة تماماً.

(٢)

كانت الحديقة مُبلّلة.

جاء الكلب بسلّة ملابس فارغة إليها، فسحبت الخادمة الشراشف البنفسجية التي تغطّي بعض المناضد في الحديقة، ثمّ حملها إلى داخل البيت بين أسنانه.

(٣)

اللوحات والصور تتحرّك في الرؤوس، بطرائق مختلفة، وزوايا متعدّدة.

لم يجلس العجوز.

ظلّ يتأمّل المعرض الصغير بانتباهات مركّزة، ويزيد من تمعّنه في صورة الشخص الذي تحيط به وجوه كثيرة.

قال:

- كان خطيباً مقنعاً ذلك الرجل.

التفت للرجل:

- أكنتَ بينهم ذلك الوقت؟

- كنتُ.

Telegram: @Arab_Books

- وما الذي حصل؟

- لا أدري .. غير أن القرية انعجنت بلحظات!

- وبشرها؟

- ماتوا، وهربوا، وتفرّقوا، وغرقوا، وقُتلوا، وأُسروا.

- كيف هربتَ!

- لم أهرب.

- كيف لم تمتْ؟

- ركضتُ وراء مريم.

- كان يجب أن تموت وقتها.

- كانت مريم صغيرة، وكنتُ أخاف عليها، ولهذا لم أمتْ.

- لكن رصاصاً كثيراً قتلكَ على ما أتذكّر.

- كنتُ مصرّاً على الحياة .

- من أجل مريم؟

- لم يحنْ أوان موتي وقتها.

- لكنهم أكثروا عليكَ الرصاص.

- كنتُ أعضّ على روحي بأسناني، وأبحث عن مريم.

- أمن أجل هذا نجوتَ؟

Telegram: @Arab_Books

- ومن أجل أشياء كثيرة.

- هل كنتَ تتوقّع النهاية؟

- كنتُ أتوقّع النهاية .

- أبالشكل الذي حصل؟

- بالشكل الذي حصل.

- أتتذكّر عدد الذين ماتوا في القرية؟

- القرية كلها ماتت.

- والنبيّ؟

- لم يمتْ.

- أهرب؟

- الأنبياء لا يهربون.

- أين هو الآن؟

- موجود .. لكن الزمن تغيّر.

- ومتى نراه؟

- عندما يحتاجه الزمن.

- أتظنّ أن الزمن يحتاجه في عصر تكنولوجيا العلم الجبّار؟

- الناس أرواح، والتكنولوجيا أزرار.

- هل الأرواح تحتاج إلى فلاسفة وأنبياء؟

- تحتاج إلى الحكمة.

- متى؟

- حينما يهدّدها السلاح.

- أوَ تظنّ أن السلاح سيعود؟

- سيعود.

- لماذا؟

- لأن الإنسان مجبول على الجريمة.

- النبيّ آخى بينكم ذات زمن.

- لكن الجريمة تلبّستْ وحوشاً آدمية، ففرّقتْنا.

Telegram: @Arab_Books

بلاد الماء والنار

(١)

اصطخبت السماء بالمطر من جديد، وتصادمت سيوف البرق الفضّيّة بطريقة رعدية مثيرة، وانعكست على مرايا النوافذ إلى داخل الصالة.

· يترجرج النهر والفضاء معاً.

· لحظات منقلبة، لا تثبت قبل أن يستقرّ كل شيء، ولا تبقى إلا اهتزازات بسيطة، لا تؤثّر كثيراً على انسيابية الصورة الذاهبة مع مجرى الماء.

· تتكرّر بين لحظة وأخرى أصوات لطبيعة أسئلة معروفة وأجوبة جاهزة.

· تمسح الصورة ضفَّتَي النهر.

· مَشاهد متنافرة بينهما، من بنايات وشواخص وجسر بعيد، وتعود، لتستقرّ على وجه صيّاد، يتوقّف عن التجديف.

· ثمّة مترجم يسأله عن المسافة المتبقّية للقرية.

· صوت أجنبيّ يسأل، وينتظر، فتعود العدسة عليه وهو يتكلّم، كأنه يقدّم برنامجاً تلفزيونياً من النهر.

· ربّما هو كذلك، ففريقه يكتب الكثير من الملاحظات، والصيّاد مهيّأ بمعرفة فطرية لهذا الممرّ إلى تلك القرية.

Telegram: @Arab_Books

· قال الصوت الأجنبي:

· قلْ للرجل حينما نقترب من القرية قبل عشر دقائق، كي نتهيّأ.

· يكرّر الرجل ما قاله الشّابّ، ورجل الزورق يتهادى بزورقه، وعلى وجهه ابتسامة تصوير كسولة، لم ينزعها مذ أركبَ فريقَ العمل معه .

· تعود الصورة إلى النهر.

· نفايات نباتية وخشبية طافحة تجري بطيئة.

· أمواج الزورق تكشف مقطوفات شجرية وموادّ تتحلّل في انحدارها البطيء برؤوس سود، لا تظهر كثيراً.

· أصوات نوارس قريبة، يبدو أنها تحوم حول الزورق.

· ثمّة صوت بلغة يابانية، وصوت آخر يردّ، ومن ثمّ، بنايات طابوقية قديمة مائلة، ورؤوس عمارات واضحة.

· تتغيّر اللقطة كأنما التصوير قد توقّف منذ وقت غير معلوم، ليظهر النهر قريباً من الشاطئ الأجرد.

· وراءه مساحات متروكة.

· فضاء غير منتظم، بتلال نفايات، وهياكل واطئة.

· تدور الكاميرا إلى الضّفّة الأبعد.

· لا شيء يمكن استشفافه سوى النوارس الطافحة.

· يرفعها موج الزورق الصغير قليلاً، لكنها لا تطير.

· قال رجل الزورق: سنصل بعد قليل.

· استدارت الكاميرا إلى جهة أمامية.

· هناك سواد يقطع الفضاء والمساحات المتروكة المنحدرة مع النهر.

· يظهر وجه الياباني (الذي يقود الفريق الآن) وهو يتطلّع إلى مكان ما.

· تدور الكاميرا إلى حيث يقول رجل الزورق: هذه هي القرية.

· بيوت صفيحية غير منتظمة تُلقي بثقلها إلى حافة النهر تقريباً.

· رايات بيضاء ترفرف وتعلو السطوح الواطئة، هي أبرز ما يلفت الأنظار إلى هذا المكان.

· صغار يتوسّطون النهر برؤوسهم الطالعة،

· غير أنهم ينسحبون إلى الضّفّة متسابقين، ليقودوا الزورق كعادتهم بتلقائية حميمة، ويرصفونه العلى الجرف.

· وجوه أطفال وصبيان.

· صَبيّة شعثاء تخفي نفسها عن الكاميرا.

· نساء القرية المتخاطفات إلى حافة النهر، ينظرن إلى الوجوه اليابانية مسحوبة العيون.

· انسحب النهر كُلّيّاً، ودخلت الكاميرا من فم الزقاق.

(٢)

قال الياباني لنفسه وهو يُدمن النظر في المكان الذي فارقه منذ ثلاثين سنة:

Telegram: @Arab_Books

- شيء مخيف أن ترى مكانكَ وحياتكَ قبل ثلاثين سنة.

ضغط العجوز زرّ الإيقاف، فخرج رأس الكبسولة من العارضة الصغيرة، واستحال شاشة الحائط إلى نمش متراقص.

- كان ذلك قبل ثلاثين سنة، وكأنه الأمس القريب .. يااااه.

تنفّس قليلاً، كأنه يتهيّأ مرّة أخرى لمُشاهدة الماضي المُعلَّب، فأعاد تشغيل الجهاز بزرّ الكونترول الصغير:

· المقهى المزيّنة تعود إلى الذاكرة .. يتأمّلها الرجل بحُبّ كبير.

· هويات غرقى دجلة المرصوفة التي فضحت الحكومة بميليشياتها المستهترة.

· الملصقات المختلفة التي تنوّعت على الجدار ورجل المقهى مجهول المصير.

· تمرّ النساء في السوق الوحيدة المزدحمة.

· عطّار الأعشاب الذي يحاول الرجل أن يتذكّره الآن.

· ما الذي حلّ به؟!

· قرية الصفيح التي أنشأها الناس بعفوية هرباً من الحرب والقتل والرصاص والموت.

· دجلة يسير تحت وطأة الأيّام بدم يتدفّق حتّى تغيّر لونه.

· تتقاطر المشاهد بشكل سريع قبل حلول الكارثة.

· تدور الكاميرا حول الياباني الأكثر شباباً من اليوم، وهو يجري حواراً مع قطّة للتلفزيون الياباني.

· كانت تشرح فيه نظرية المؤامرة التي أوجدها المارينز باحتلال بغداد.

· تحدّثت بجرأة عن السياسيّيْن العراقيّيْن الذين جاءت بهم أميركا، بعمائمهم وبدلاتهم السموكن اللمّاعة،

· وقالت بوضوح إنهم عملاء، وحتّى عماماتهم وبدلاتهم عميلة.

· لم يقلْ هذا غيرها في ذلك الوقت.

· كانت جريئة، وقد جازفت بحياتها.

· كانوا يُحصون الأنفاس، ويطاردون الهواء الذي يفضحهم.

· في لقطة ما، تظهر مريم كما لو تبحث عن شيء ما.

· ثمّ تخرج من الكادر.

· هناك مسرحية على الهواء الطلق، يقودها شابّ مسرحيّ،

· والأستاذ محاط بكاميرات عالمية، يتحدّث عن قرية وطنية، أنشأها البغداديون على ضفاف دجلة.

· احتجاجاً على الحرب وصراع الكراسي وقتال الطوائف الحمقاء.

· كان يقول بحماسة :هذه بلادنا، ولن نغادرها.

Telegram: @Arab_Books

براميل

· عتمة نسبية تُظلّل مَن يتحرّك داخل المشهد.

· مساقط الضوء المخطّطة النازلة من سقوف الصفائح العشوائية المرتمية على السوق لم تعد كافية لوضوح الصورة.

· من فم القرية الآخر، يقتنص المصوِّر حركة دائبة لرؤوس وأجساد تمشي.

· تنخفض الكاميرا إلى الأسفل، على حركة مشوّشة، يُسمَع خلالها أصوات رصاص قادمة من النهر.

· أقعت الكاميرا وهي تسحب جوّاً مرتبكاً على ما يبدو،

· ثمّ تغيّر المشهد.

· يظهر النهر ثانية من أحد سطوح القرية، وهو يحمل مجموعة زوارق متباعدة نسبياً، أحدها ينطلق منه رصاص مباشر، وهو الزورق المتقدّم.

· قرّبتْه العدسة كثيراً.

· مُلثّمون مُتهيِّئون ببنادق مصوّبة من منتصف النهر.

· تنقّلت العدسة بين الزوارق بارتباك واضح.

· الزوارق تتقدّم باتّجاه القرية،

Telegram: @Arab_Books

· حاول المصوِّر أن يضعها في لقطة واحدة، لكنه لم يستطع،

· ربّما أربكتْه جلبة القرية وصراخ النساء وانهمار الرصاص المفاجئ.

· التّحوُّل إلى الطرف الآخر من القرية، يفكّر الرجل الصافن، يعني الإسراع باجتياز البيوت والسوق حتّى المقهى.

· ثمّة صراخ تتناوبه النسوة.

· هربت نساء حائط الهويات الباحثات عن أبنائهنّ المغدورين.

· توزّعنَ بين الأزقّة القليلة والبيوت، وانخبص الرجال الغرباء بالهجوم المباغت.

· أرجل تتخاطف، وأصوات تتلاطم.

· ينكشف مشهد النهر عن زوارق كثيرة، تتّجه ببطء.

· الزورق الأقرب إلى مدخل القرية يُلقي الرمّانات اليدوية.

· ترابط الكاميرا على أحد الأسطح المائلة،

· ومن خلف براميل محشورة، ظهرت واختفت، تنقل المشهد ذاته الذي تقوم به بقية الزوارق.

· يتّضح أيضاً أن الزوارق محمّلة برجال مُصرّين على فعلٍ ما.

· الياباني العجوز الجالس الآن وهو يدير المشاهد يصرخ صرخة غريبة، فتلتفت إليه الكاميرا.

· الإصابة في ساقه.

· يجلس على الأرض، ثمّ ينهار.

Telegram: @Arab_Books

· لم يستطع البكاء.

· يفقد الوعي قليلاً، لكن روح الحياة تُوقظه بشكل غريب.

· يُسعفه أحدهم، ويجرّه إلى مكان آخر، يحاصره الدخان من أحد المحالّ المحترقة.

· دخان يتصاعد من طرف القرية.

· دورة كاملة وسريعة، لم تستطع أن تلمّ بالقرية كاملة.

· أصوات الرصاص تتّضح أكثر.

· يظهر شابّ مسرحيّ كالمجنون، ويختفي.

· يظهر الأستاذ الأكاديميّ بطوله الناحل، وبقميص أزرق، يصرخ بالأهالي.. اخرجوا. احتموا بالنهر .. أعداء الإنسانية يقتلونكم .. أعداء الحياة وصلوا .. الوحوش وصلوا .. اهربوا، يا فقراء بغداد من هذا الوطن القبيح .. قاوموا هذا الغدر بالهرب فوراً .. لا تموتوا بسهولة ..

· كانت استغاثاته ونداءاته واضحة وعالية الصوت.

· في مشهد آخر، يظهر حاملاً امرأة على ظهره متّجهاً إلى النهر.

· وفي ثالث اللقطات، يحمل طفلَيْن، ويركض كالمجنون بهما بين حريق، شبّ وسط القرية.

· آخر لقطات الأستاذ: الدم يلطّخ قميصه من الخلف، وهو يتّجه إلى النهر، يقود امرأة مجهولة، كانت في آخر أيّامها، تنام في بيته وهو يصيح:

· لقد قتلوا الصّيّاد .. لقد قتلوا الصّيّاااااااااد.(*)

---

*) خاتمة روايتي "عجائب بغداد"

Telegram: @Arab_Books

رؤوس طافية

· ظهر الرجل الجالس في الصالة الآن مرتبكاً وهو يصرخ:

· .. أينكَ؟ .. أين أنتَ؟

· كان ينادي على أحدٍ ما، وكانت عيناه مرتبكَتَيْن، يبحث فيهما عن شيء ما،

والرصاص يخترق البيوت والمحالّ.

· أصوات الانفجارات تدكّ القرية، وتفتح في بيوتها دماراً شاخصاً.

· أصوات مستنجدة غير مفهومة، إلا أنه يمكن تلمُّس الذعر العارم منها.

· اختفى النهر من على أحد السطوح،

· وظهر ثانية، وهو يكشف الزوارق التي وصلت الضّفّة كلها.

· توزّع الرجال الملثّمون على أقسام مُنتخَبَة من القرية،

· انفجرت المقهى الوحيدة.

· يمكن مُشاهدة جثث مُتناثرة مع حطام المقهى وموجوداته القليلة.

· هناك صوتٌ آمر يتقدّم الأصوات الملثّمة: أحرقوا هؤلاء الأنجاس. أحرقوا هذه الملّة المُلحدة.. اقتلوهم بلا رحمة.

Telegram: @Arab_Books

· سواد يطغى، وحركة محجوزة في مكان ضيّق، لا تبين معالمه،

· ثمّ جثث متناثرة لنساء ورجال وأطفال ماتوا أكثر من مرّة، بسبب شظايا انفلاقات الرمّانات اليدوية.

· حرائق صغيرة تكبر.

· يتغيّر اتّجاه الصورة إلى النهر.

· الناجون القلّة يتفرّقون في النهر، والرصاص يطاردهم.

· يبدو أن كثيرين منهم غطسوا، ولم تخرج رؤوسهم في نهاية الأمر.

· في حين يمكن ملاحظة رؤوس طافية أخرى،

· وهي تتّخذ من مجرى النهر سبيلاً للهرب،

· لعلّ المساء ينسدل، ويكون ساتراً من الرصاص.

Telegram: @Arab_Books

تنغلق العدسة

· يخرج الرجل الجالس في الصالة الآن متوثّباً من سحب الدخان السوداء، وهو يمسح دمه من كل مكان،

· يجرّ وراءه مريم وهي تصرخ برعب طفلة، داهمتْها وحوش ونيران.

· مريم الخمسينية الجالسة قريبة من الرجل تصرخ بعذاب، والرجل الجالس في الصالة الآن يجرّها بعنف وهي تلتفت بذعرها إلى عينَيْه اللتَيْن يملؤهما الرماد،

· مريم .. أسرعي إلى النهر .. أسرعي.

· يظهر شابّ مسرحيّ مُدمى الوجه، في مشهد سريع جداً، ولا تُعرف نهايته.

· تظهر جثث وحرائق تلتحم، وصوت قوي يصيح .. أحرقوهم، واقتلوا صغيرهم وكبيرهم فيهم.

· انفجارات مترادفة بلا صورة.

· تتحرّك الكاميرا منخفضة إلى النهر، تُصوِّر الأرض.

· تتوقّف.

· مشهد الدخان وألْسنة اللهب تتصاعد من القرية.

Telegram: @Arab_Books

· كل شيء يحترق.

· تتهاوى بيوت الصفيح والخشب.

· تُطقطق عظامها، وتنفجر فيها بين الحين والحين الآخر عبوات ورمّانات وقناني غاز.

· تهرب الكاميرا إلى الضّفّة.

· الياباني المصاب بساقه (الآن هو سبعينيّ) يحجل راكضاً هو أيضاً باتّجاه النهر.

· جثث بقيتْ قريباً من المقهى، يمكن رؤيتها بالعين، وأخرى تفحّمت.

· لغة يابانية مذعورة.

· حوار لاهث قصير وآهات.

· خَفَتَ الصراخ، أو تباعدَ.

· اشتعلت القرية كلها.

· كتلة نار تبعث الرهبة.

· تلوذ الكاميرا بين الأزبال، وتتراجع.

· الملثّمون يبتعدون عن حرارة النار باتّجاه النهر، ويُمشّطون الفراغات بالرصاص بعشوائية كبيرة.

· يتحدّث المصوِّر مع الرجل السبعيني (كان في أربعينيات عمره)، وكانت الكاميرا ثابتة على مشهد الحريق الواحد الملتهب، كأنها أركنت على طابوقة أو خشبة.

· حديث لا يُفهَم بين الاثنَيْن، ولا تُستشَفّ منه أيّة معلومة، بسبب اللغة.

· تتحرّك الكاميرا من جديد صوب النهر.

· هدأت الأصوات، أو غابت، أو ذابت، أو ماتت، وانتهى البشر بلمح البصر.

· لم يبقَ غير حريق ممدود على طول النهر.

· يستعيد المصوِّر الرؤوس اللائذة بالنهر، ويسحبها بزوم العدسة.

· تقترب بعض الرؤوس، وهي تجاهد أن تصل إلى أيّة مسافة تُبعدها عن كمائن الملثّمين.

· يتشكّل المساء بهدوء، وتخفتُ نيران القرية.

· ينتهي النهار والموت معاً.

· حتّى الأصوات تختفي، ويحلّ المساء.

· تهمد النار، وتخفتُ ببطء شديد.

· يحلّ الظلام، وتنغلق العدسة.

Telegram: @Arab_Books

جزيرة الملثّمين

(١)

انفتحت أضواء الصالة، وساد صمت بين الحاضرين.

ثلاثة عقود تعود بدقائق ملطّخة بالوحل والدم والموت والدخان والرصاص والرمّانات اليدوية والحرائق.

ملثّمون وزوارق ونهر بريء.

حيوات غرقتْ، وغيرها احترقتْ، وأخرى ضاعتْ حتّى اليوم .

كَتَبَهَا النسيان في لوحٍ مغمور، وتلاشتْ في أسطورة النهر الصغير.

كآبة متوقّعة أحاطت بالحاضرين.

والياباني يتحسّس موضع الرصاصة القديمة في ساقه، كأنه يحسّها الآن، ويشعر بوطأتها وعذاب الخروج من القرية وسط الحرائق وانضغاطات الرمّانات المتفجّرة، والمصوِّر الحائر بمشاهد متلاحقة، لا سبيل إلى إغفالها، في حين بقي رجل الصالة ساكتاً، ينظر إلى الفراغ الذي أحاط بالجميع.

(٢)

ذكرى واحدة تستعيدها كبسولة صغيرة جداً.

Telegram: @Arab_Books

زمن منضغط في أرشيف شبحيّ، يجمع أعماراً، كانت حَيّة، وماتت في لحظة التوثيق المفاجئة.

وقرية كان لها أن تكون بؤرة حياة أخرى، غير أنها رحلتْ مع الرماد والدخان إلى جزيرة الملثّمين السوداء.

وأستاذ أحالوه متقاعداً على الجنون، فابتكر طريقة حياة فريدة،

لكنه اختفى في النهر حتّى ظهر في بَرٍّ، كان مستودعاً للجثث، في وقت آخر، فأحيا روحه من جديد، وصار البرّ الأحمر برّاً أخضر.

(٣)

كثيرٌ من العظماء تبتلعهم الأنهار في لحظة تخرج عن قانون الطبيعة ومسارها، فتتمادى وتتوحّش، لتكتب الكارثة بوضوح.

كان هذا في روايَتَي الرجلَيْن الجالسَيْن الآن، وهما يستقدمان ثلاثين سنة من الماضي الذي حوّل بغداد إلى شريطٍ أسود أو أحمر من الذكريات.

Telegram: @Arab_Books

خذني بقوّة

(١)

غرقتْ عينا مريم بالدموع، وكانت السماء تُمطر خارج الصالة.

خرجتْ ناشجة، يتبعها الكلب الضخم.

اجتاحتْها حمّى مجنونة ليوم عصيب، فطر رأسها الآن.

كم هناك من حلقات مفقودة في الحياة، لا نراها في لحظات الخوف والضعف والانهيار.

(٢)

أنا مريم.

· خذني إليكَ بقوّة، واكتبْ على صدري روايتكَ المؤجّلة،

· فالنهر يمور بالنار والغدر والخديعة.

· أنا ابنة القَدَر الصغيرة التي التهمتْ النار ثيابها في غفلة منها،

· لكنكَ أحرقتَ أصابعكَ في قلبي قبل ثوبي.

· تعال، أيّها الحلم الذي مشيتُ إليه قبل أن يرتدّ طرفه إليه.

Telegram: @Arab_Books

· ها إنكَ رأيتَني قبل قليل، كيف أنظر إليكَ، وأنت تدفعني إلى النهر،

· والنار مشبوبة في ثيابي،

· وقلبي الصغير ينخلع لهول الحياة التي حاصروها بالرصاص والموت.

· كان الموت أقصر طريق في حياتي لحظتها،

· لكن روح البقاء كانت أقوى وأكثر دهاء،

· والبقاء هو أنتَ، أيّها المقبل إليّ من سواحل الغربة.

· انبعثت الطلقات مفردة.

· طلقة تتلو طلقة.

· صبيان النهر اكتشفوا عدائية الزوارق بحسّ غريزي حتّى قبل إطلاق الطلقة الأولى.

· انسحبوا من النهر تباعاً.

· كان الصّيّاد بينهم وزورقه محلّى بأشرطة القرية ورايتها البيض.

· كنتُ قريبة من النهر، أحصي عدد هويات القتلى - الغَرْقى ذلك اليوم.

· لكني أجد غيرها تنبت في المكان حتّى من دون أن يأتي صيّاد النهر.

· بدا جدار الحائط كأنه مزرعة بأرض خصبة، تلد هويات الغَرْقى في كل لحظة.

· كل هوية مثبّتة على الحائط هي لغريق، غدروه.

· مرق الأستاذ مُطأطئ الرأس منشغلاً بأمر ما،

· لكنه عاد إلى الجدار.

· ثمّ مضى.

· أذكر ذلك جيّداً أنه عاد ثانية بعد أقلّ من دقيقة، وسألني عنكَ.

· قال شيئاً لا أتذكّره.

· أو ربّما لم يقلْ شيئاً، غير أني أتذكّر تماماً أنه كان يسأل عنكَ.

· استوقفتْه إحدى الفضائيات المتواجدة في القرية على مدار الأيّام.

· بحثتُ عنكَ.

· كنتُ أريد أن أراكَ، وأقول لكَ شيئاً.

· النهر وحيد، والسماء بعيدة، والغبار ساكن، والأستاذ كان ينظر في عينَيّ، لعلّه يجدكَ.

· كان يحتاجكَ لحظتها بعناد.

· الخوف الغريزي من النهر جعلني لا أقف كثيراً حتّى على ضفّته.

· الجثث الغريقة التي تمرق ميتة، أحالتْ لياليّ كلها إلى كوابيس.

· في لحظة الاحتراق المريعة قذفتُ نفسي بلا تردّد.

· كنتُ أتشبّث بكَ.

· سأكون جثّة لصيّاد آخر، سيتلقّفني.

· الملثّمون يحيطون بنا وبالقرية.

· خذني إليكَ.

Telegram: @Arab_Books

· واللحظة التي أخذتَني فيها كانت لحظة اعتراف خجولة، لكنها لحظة عشق استثنائية في حياتي.

· كان دمكَ يختلط بماء النهر.

· عشقٌ ودمٌ وخوفٌ، ورصاصٌ يثقب النهر، بجنون وحقد.

· كثير من الرؤوس التي عبرت النهر معنا غطستْ، ولم تخرج حتّى اليوم، أو ربّما انتشلها صيّاد في آخر النهر.

· كان الماء لزجاً.

· كان دماً،

· وجروحكَ تنزف،

· وأنفاسكَ الحميمة اختلطت بأنفاسي المذعورة.

· خذني أبعد ممّا أريد.

· أنا خائفة.

· خذني إلى الحياة الأخرى،

· فلا أريد أن أموت تحت أقدام هذه العصابات السوداء.

· ابتعد كل شيء.

· النهر والفضاء والقرية والملثّمون،

· حينما انسدل المساء، وبقيتْ رؤوسنا طالعة في متاهة النهر الجاري.

· ليلة طويلة من الظلام.

· كنتَ تحملني كقطّة صغيرة، ورأسكَ يلتصق برأسي، وتهذي.

· كنتُ أُنقذكَ، وكنتَ تُنقذني في تيار النهر الجريح.

· تلاشى صخب الصغار والقرية والاستغاثات،

· والنهر يدفعنا أنا وأنتَ إلى حياة مجهولة، ومصير غامض.

· كنتَ تعانقني وأنتَ جريح،

· وكنتَ حياتي في لحظة الموت المندحرة في أقاصي النهر.

· هل تذكر؟

· كنتَ تحتضنني وتهذي وجسدك الجريح يلتصق بي، في أعماق النهر اللزج .

· منحتُكَ مريم الصغيرة التي تخشى فقدانكَ في ساعات الليل الطويلة.

· وكنتَ تقول بصوت ضعيف: يا مريمُ، لا نهاية لهذه المتاهة، تشبّثي بي.

· وكان جسدي يلتفّ على جسدكَ تحت الماء.

· أمنحكَ البقاء، وأمسح جروحكَ في هدأة الليل مستسلمة لأيّة نهاية.

· خرجتُ من قبضة النار إلى قبضة النهر معكَ.

· أتقنتُ لعبة الطواف على الموج.

· كنتُ خفيفة كريشة .. لستُ ميتة، لهذا أصبحت هكذا.

· والماء ينسلّ بين ثيابي، فيُعرّيني، فلا أجد غير غطائكَ يحتويني في تلك البرودة الساخنة.

· كنتَ عارياً مثلي.

· خفيفاً مثلي.

· وكان الفجر ينسِلُ خيوطه الأولى في أفق رصاصيّ شفّاف.

· عرّاني النهر .. أتذكر؟

· قلتَ لي شيئاً بصوت ضعيف لا أتذكّره الآن،

· لكنه كان كومضة الحياة الأولى، وإشراقة الفجر المقبلة.

· لم تكن تتكلّم.

· إصاباتكَ بليغة،

· وكان جسدي يمرّ على جسدكَ من تحت الماء، فيُحييكَ.

· يُحيي أوردتكَ وصمتكَ وحيرتكَ بي، ويُغذّيكَ بالحُبّ والدم معاً.

· كنتَ تضمُّني، وأنتَ تنتظر الخلاص في الفجر الذي يدبّ متمهّلاً،

· وكنتُ أستعذبكَ، وأحبّكَ، وأعشقكَ، وأنتَ تقودني إلى الحياة من جديد.

· احتضنتَني بقوّة،

· وكنتُ مثل سمكة، أنزلق تحت جسدكَ في برودة الماء،

· وأُمسك عروة الجمال والبقاء فيكَ.

· سيأتي الفجر بعد لحظات، وتتكشّف الحياة عنّا.

· غريبان جمعهما النهر والنار معاً.

Telegram: @Arab_Books

· قلتُ لكَ شيئاً.

· لا. هي أصوات من روحي المحشورة بكَ، تتهجّاكَ.

· كانت شفتاي تبحثان عن شفتَيْكَ.

· لم أكن أستطيع الكلام، وأنا عارية بين فخذَيْكَ تحت الماء وتحت النهر.

· أُمسكُ بلحظتي الجميلة قبل الفناء،

· وأحتكم إلى جنون الأنثى الغارقة فيكَ.

· دع الفجر يتمهّل.

· دعني أحيا لحظات تحت الماء العذب بين جروحكَ وصمتكَ.

· دعني لكَ

· حوريةَ نهركَ التي تتلوّى تحتكَ، في ماء يجري، وفجر يخترقني بقوّة.

· اخترِقْني، وحرِّرْ روحي منّي.

· دعني أغرق فيكَ.

· ألجمت دمكَ، وأوقفت جريانَهُ ليلة عصيبة، كي لا ينتهي.

· هذا خيط دمي النحيف يجري خلفنا في النهر حينما انفكّ جسدانا.

· خيط دمي يُعلن ولادة الصباح الأوّل.

Telegram: @Arab_Books

خيانة اللغة

(١)

حاول الياباني العجوز أن يُخفّف من وطأة الذكرى الأليمة على روحه، وأن لا يشحنها بالمخيف منها، لكنه، وهو يعيد شريطه الأثري، يجد نفسه في بوّابة الذكرى من لحظتها الأولى، حينما اختلطت الأجساد في سوق ضيّقة، وتدافعت الأكتاف في لجّة أصوات مستغيثة.

· أصوات محمومة متسارعة، لا أعرف بماذا تصرخ،

· غير أن المرء يشمّ رائحة الذعر فيها.

· لا لغة للذعر والخوف، عندما تعقد ألسنَ الجميع.

· الإحساس ذاته بالنهاية يخالط الأرواح المستفزّة.

· صحتُ بالمصوِّر، ابركْ.. هناك هجوم على القرية.

· الشعور بالفزع لدى الغريب يتضخّم كثيراً.

· الشعور بالوحدة في مواجهة الموت أمرٌ عسير الفَهْم،

· فليس ثمّة من منقذ في شبكة رصاص يتطاير،

· ورمّانات يدوية، تُحوِّل القرية إلى محرقة،

Telegram: @Arab_Books

· وساحة حرب من طرف قويّ،

· يحمل كل شيء، وباستطاعته فعل كل شيء أمام أناس عُزّل وبسطاء.

· وقتها لم نفهم ماذا يجري.

· خانتْنا اللغة أيضاً،

· والمصوِّر يتنقّل من مكان إلى مكان،

· يكتنفه شعور من أننا سنكون في مأمن، كوننا غرباء،

· في قرية، لا توجد فيها غير الدكاكين والنهر، ومقهى صغيرة، نتجمّع فيها.

· وجدتُ نفسي وحدي بين الأجساد المتلاطمة.

· هُرعتُ إلى السوق، لكنها كانت مغمورة بدخان أسود،

· انقسمت السوق إلى قسمَيْن:

· قسم يحترق، وقسم ينتهكه الرصاص وانفلاقات الرمّانات اليدوية.

· دخلتُ أوّل بيت، وصعدتُ إلى أحد السطوح، بيأسٍ كامل.

· ملثّمون بالعشرات يركنون قواربهم، ويُطلقون النار بعشوائية فظيعة.

· أيقنتُ أن ساعتي حانت.

· وجدتُ المصوِّر على السطح، يلوذ بكاميرته، ولا يعرف ماذا يفعل.

· خبّأتْنا براميل مصفوفة وقتاً قصيراً،

· لكن الرصاص المنهمر جعلني أترك المصوِّر، وأهبط إلى داخل السوق المحترقة، وأنا أحثّه على اللحاق بي.

Telegram: @Arab_Books

· كان في ذهني النهر، فهو الخلاص الأخير.

· وجدتُ رجلاً يحمل جثّة ابنته الصغيرة حائراً يبكي.

· اخترقتْ رجلي رصاصة حارّة.

· كان وقعها المفاجئ، كأنّ أحدهم بَتَرَها في تلك اللحظة.

· سقطتْ رجلي، وسقطتُ بعدها،

· لكن غريزة البقاء والحياة كانت أقوى،

· فأيقنتُ أن بقائي هكذا يعني احتراقي، وأنا نصف حيّ، ونصف ميّت.

· خرجتُ من الدخان بين صراخ النسوة والأطفال،

· فخطف الأستاذ من أمامي كشبح حاملاً امرأة جريحة أو ميّتة.

· وغاب في النار التي بدأت تستشري، كأنّ لها فكوكاً وألسنة.

· أسمع كل شيء، ولكني لا أفهم كل شيء.

· الجثث متناثرة، وأصوات الاستغاثات لا تنقطع.

· كنتُ أضعف من عصفور، ودمي يجري خلفي.

· عثر عليّ شابّ المسرح.

· جرّني من نيران قريبة، وأخلاني بعد المقهى.

· كان يجرّني مثل الذبيحة التي ترفس وتحتضر في لحظتها الأخيرة.

· وجدتُ في ضعفي قوّة، أو هكذا أتصوّر، إذ لابدّ للغريب أن يعتمد على نفسه في لحظات الخطر.

Telegram: @Arab_Books

· قرّر شيء في داخلي أن أكون إنساناً حَيّاً.

· يعني أن لا أموت.

· هذا كل شيء، باختصار.

· رجل المقهى أظنّه قُتل.

· رأيتُه يتلوّى وسط جثث الباحثين عن هويات أبنائهم.

· عشرات الجثث المتقاربة والمتباعدة.

· حينما زحفتُ إلى النهر، وجدني المصوِّر.

· جرّني إلى مسافة ثانية جوار حائط مهجور.

· كان بإمكاني رؤية النساء والرجال تقذف أرواحها وأجسادها في النهر.

· رؤوس طالعة وهي تحاول أن تنحدر مع مجرى النهر،

· لكن الملثّمين كانوا يصطادون فرائسهم بسهولة.

· كان الوقت شمساً ونهراً وحريقاً طويلاً ودماً يُلطّخ النهر.

· تشبّثت بالمصوِّر: لا يتركني.

· قلتُ له لنهربَ عبر النهر،

· إلا أنه كان يقول لي بارتجاف .. النهر مقتلنا.

· هؤلاء يعرفون طريق المصيدة،

· إمّا النهر، وإمّا الحرق والموت.

· في لحظة خاطفة، رأيتُ الأستاذ يخرج من النيران مثل بطل أسطوريّ.

Telegram: @Arab_Books

· لا أعرف كم جسداً يحمل.

· من فراغ ناري ملتهب،

· رأيتكَ، أيّها الروائي، تلوذ بشابّة مخطوفة الروح،

· ضائعة في ركام القرية.

· تحنو عليها بخوف، وتدفعها إلى النهر.

· ناديتُ عليكَ، كي تجد لي منفذاً،

· لكنكَ كنتَ في عالم من الفوضى والنار،

· وكانت الشّابّة الجميلة هي كل ما تملكه وقتها.

· أظنّها مريم الآن .. هذه السّيّدة الجميلة التي عرفتُها فور وصولي إلى هنا.

· الأشياء الجميلة لا يمكن نسيانها بسهولة.

· كنتُ ألمح سواد عينَيْها المذعورَتَيْن.

· لا أستطيع نسيانهما ما حييتُ.

· عينان مكحولتان بسواد عظيم،

· واسعتان مثل الأمل،

· شابّة بعمر موجة نهر، كنتَ تحملها، وتركض،

· وكانت تقاوم اللحظات بعينَيْها فقط.

· قُضي أمر القرية ومَن فيها.

Telegram: @Arab_Books

· نار عالية اتّحدتْ في مشهد، لا أنساه.

· تلك أوّل مرّة، أسمع فيها صوت النار،

· وهي تسحق الصفيح والأخشاب والبشر.

· عاد لي المصوِّر.

· ترك كاميرته بمواجهة الحريق،

· وجرّني وراء صخرة،

· وهو يلفّ ساقي بقميصه،

· كنتُ أئنّ، وأصمت، وكان الغروب يتّحد،

· وكنتُ في غيبوبة بعد خفوت النار.

(٢)

خفّ المطر في الخارج، وأبدلت الخادمة عربة الطعام النهرية.

استرسل الياباني بألم، كأنما يريد أن يخلص من عبء أو أمانة خاثرة في أعماقه:

· روى لي المصوِّر لاحقاً أن كلاباً عثرتْ علينا،

· وشرطة نهرية انتشلتْنا عند الفجر،

· حينما جرفْنَا النهر إلى آخر العاصمة،

· في مكانٍ، لا ميليشيات فيه.

Telegram: @Arab_Books

نظر الروائي إليه، فرأى في عينيه اختزالات زمن طويل، لكنه ابتسم، وقال:

- يبدو أنني كتبتُ في روايتي لحظة النهر الذي يحترق .. وأنتَ لم تكتب بعد الشيء العظيم في أثناء رحلة الغَرَق .. أنتَ ومريم ..!

تطلّع الروائي إليه بعينَيْن تتساءلان، فاستدرك الياباني:

- لم تكتب بعدُ عن خيط الدم الذي انساب وراءكما في النهر أنتَ ومريم، في ذلك الفجر العظيم .. لهذا تعسّرتْ عليكَ روايتكَ التي تفكّر بها منذ ثلاثين سنة.

ثمّ قال بخبرة، فاجأت الروائي:

- خيط الدم هو بداية روايتكَ المؤجّلة ونهايتها، يا سيّدي.

Telegram: @Arab_Books

دموع مريم

احتضنَها، وشمّ رائحتها الأثيرة، ومسح دموعها:

- ما مضى قد مضى. كان ذلك زمناً تعيساً.

- وأين ذهبت أولئك الناس كلهم؟

- قد نجد بعضهم ذات يوم. الدنيا أضيق من حدقة العين.

- لماذا حصل ذلك كله؟

- كانت الظروف مهيّأة، لأنْ يحصل ذلك كله.

- ولماذا نحن الضحية؟!

- لأننا أبناء البلد الحقيقيون. أبناء الحقيقة الوحيدة التي تقاطعت مع زيفهم وسفالتهم وعمالتهم.

- أفلام الياباني أعادتْ لي فجيعَتَنَا .

- ما مضى قد مضى .. هذه جمهوريّتكَ الصغيرة .. جمهورية مريم الحبيبة التي لن يطالها شيء بعد الآن .

- كانوا الوساخة بعينها.

Telegram: @Arab_Books

ضمّها من جديد:

- تحدّثنا في ذلك ثلاثين سنة كاملة .. ما رأيناه من وثائق فيلمية هو تاريخ شخصيّ، لكنه تاريخ بلاد، وعلينا أن نحتفظ به، لتراه الأجيال المقبلة.

شمّتْه من رقبته بعمق، فقال لها من بين أنفاسها:

- انتهى الماضي، ولن يعود .. صار أفلاماً قصيرة .. هيّا، لنودّع الضيوف.

٢٠١٥ – بغداد

Telegram: @Arab_Books

فهرس الرواية

الصّدمة اليابانية ٩
الحيّ الأخضر ١٧
مزرعة الجثث المجهولة ٢٣
غاندي ٢٧
الروائي ٣١
القصّة التي بدأت ٤٠
الحُبّ ٤٤
الكتابة تحت المطر ٥١
نهر بغداد ٥٨
أنا بوذا ٦٤
مريم .. الرواية المقدّسة ٦٧
كنتُ أخاف على مريم ٧٥
بلاد الماء والنار ٨٠
براميل ٨٥
رؤوس طافية ٨٨
تنغلق العدسة ٩٠
جزيرة الملثّمين ٩٣
خذني بقوّة ٩٥
خيانة اللغة ١٠٢
دموع مريم ١٠٩

Telegram: @Arab_Books

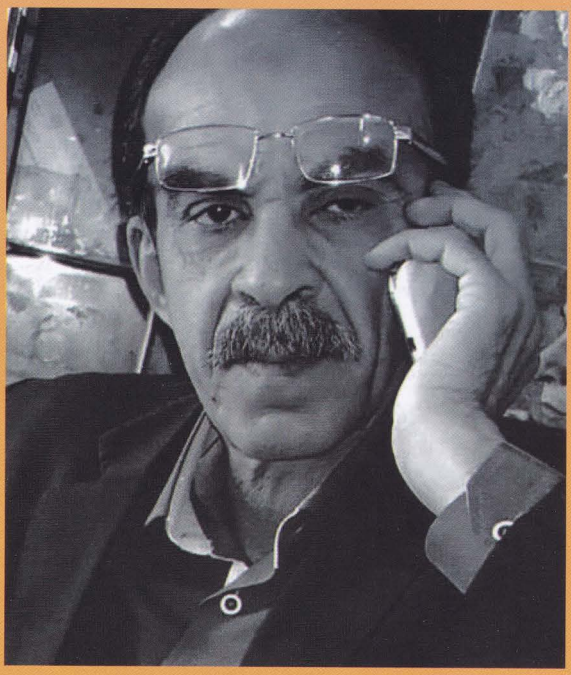

وارد بدر السالم: روائي عراقي من مواليد مدينة البصرة عام ١٩٥٦. أصدر العديد من المجموعات القصصية والروائية أبرزها: عذراء سنجار – الحلوة - عجائب بغداد -- تجميع الأسد – شبيه الخنزير- مولد غراب – طيور الغاق – البار الأمريكي – أصابع الصفصاف – المعْدان.

منشورات المتوسط

غرقتْ «مريم» في دجلةَ ذات ليلةٍ رهيبة أشعلَ الطائفيونَ فيها بغدادَ كلها؛ فهربتْ من «الحرائق-الموت» إلى «الغرق-الموت» لكنْ القدر الروائي - العجائبي تدخّل وانتشلَها بطريقةٍ سردية استثنائية فأيقنت من أنها نجت من الحريق والغرق معاً وأنها أصبحت أنثى الرواية لتعلنَ خصوبتَها في النهر للمرة الأولى في تاريخها الشخصي وتتأكد من أنوثتها لاحقاً حينما تتحول إلى جمهورية كاملة تذهب بها إلى المستقبل وتنشئ عاصمتها الخضراء بعيداً عن أمراء الحروب وميليشيات القتل الطائفي.

جمهورية مريم بنيت على أنقاض البلاد، بعد ٣٠ سنة، عبر سلسلة أحداث يكتشفها ويوثقها (الآخر) بتقنية سينمائية راصدة لتلك الحقبة المريرة؛ ليكون الوجه المشرق في خيال روائي متسارع كسيناريو لتقليص فجوات الزمن المليئة بالعنف.

«مريم» المسيحية الجميلة؛ ابنةُ الخرابِ العراقي الكبير، إحدى شواهد العصر الكئيب الباقية حتى اليوم، ستواجِهُ في هذه الرواية التاريخَ بتاريخٍ سردي صنعتْه بنفسها؛ يؤازرها روائي صامت على مدار الحدث. وهو الشخصية الثانية التي ساهمت بصناعة هذا السرد المستقبلي.

«جمهورية مريم» شهادة قصيرة بحجم الكف لكنها تتسع لوطن كبير.

ISBN: 978-88-85771-20-8
9 788885 771208
المتوسط